AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00845 9830

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

LA
1646
B52

أمير بقطر

آراء حديثة في التعليم

مطبعة المجلة الجديدة ١٢ شارع نوبار . مصر

370.1
B64m
٣٧٠ ا
ب ١٠ ا
23135

الاستاذ أمير بقطر

القراءة الصامتة

.....

يظهر أن الغرض الوحيد الذى ترمي اليه مدارسنا المصرية من تعليم القراءة هى تعويد الطلبة أخراج الالفاظ من مخارجها والنطق بها نطقاً صحيحاً مع مراعاة جودة الالقاء وضبط آخر الكلمات بالشكل مراعاة لقواعد اللغة العربية

ونعم الغرض طبعاً ، لأن المفروض أن الطلبة بعد خروجهم الى ميدان الحياة كثيراً مايحتاجون الى حسن المطالعة والالقاء أو الخطابة . كما اذا زاولوا مهنة التدريس أو المحاماة او الوعظ أو تبوأوا كرسياً من الكراسى النيابية أوشغلوا احدي الوظائف السامية التى تدعوهم فى أحوال كثيرة الى أعتلاء المنابر والتأثير فى سامعيهم بما يلقونه من سحر البيان وفصاحة اللسان وخلابة الالفاظ وبلاغة العبارات

غير ان الغرض من المطالعة يجب أن يكون أبعد مدى وأوسع مجالا . فأولئك الذين ينزلون الى ميدان العمل بسلاح الخطابة طائفة معدودة لاتتجاوز عدد الاصابع ، بجانب الجيش العرمرم من الطوائف الاخرى التى تزاول التجارة والصناعة والزراعة والاعمال الحرة بجميع فروعها

أن الغرض الاسمي من المطالعة يجب أن يكون فهم العبارات التى تقرأ ، والالمام بما تنطوى عليه من الآراء ، واستنتاج نيات الكاتب والحقائق التى يريد التلميح اليها من خلال سطوره وثنايا عباراته ، وأستجلاء غوامض أفكاره من مطاوى أقواله ، وهو مايعبر عنه رجال التربية بالقراءة بين السطور أى تصيد المعاني فى خلال المطالعة

ويجب فوق ذلك أن يقوم القارىء بكل هذا فى أقل فرصة ممكنة فلا يكفى أن يصل القارىء الى ادراك المعنى وحسب ، بل يجب أن يتوخي السرعة واقتصاد الزمن أيضاً . فليس من الصعب أن تعبر النيل سابحاً من ضفة والى ضفة لكن من الصعب أن تفعل ذلك فى زمن محدود قصير

وأبطال السباحة يحاولون عبور بحر المانش من حين الى آخر ، غير أن التفوق فى سرعة عبوره هو مايكسبهم هذه البطولة ، وقطع المسافات الشاسعة سيراً على الاقدام أو جرياً لايكسب صاحبه فخرا مالم يفعل ذلك فى أقل فرصة ممكنة

وكلما زادت الأمة ثقافة وحضارة أشتدت حاجتها الى هذا النوع من المطالعة والسرعة فى أقتناص المعانى من أطراف الالفاظ ، وليس السبب فى ذلك حاجة الأمم المتمدينة الى اقتصاد الزمن اكثر من سواها لوفرة أعمالهم وتشابك مصالحهم ، بل لداع أهم وأقوي .

ذلك ان الأفكار فى هذا القرن قد نضجت فأينعت ثمارها ، وازدحمت البلاد المتمدنية مكاتبها ومعاهدها وأنديتها بالكتب والمجلات

والصحف في كل علم وفن ، حتى أصبح أهل الثقافة مضطرين بحكم الوسط ومجاراة للزمن ان يتبعوا التيار الفكرى ويقفوا على سير الحوادث العلمية والسياسية والاجتماعية والادبية ويرقبوا الاتجاهات الحديثه في مدنية عصرنا الحاضر

فأذا هم ساروا متباطئين وحذوا حذو أبناء الأجيال الغابرة لم يدركوا قطرة من بحر واصبحوا بينهم وبين حضارة هذا العصر هوة سحيقة

وانني اسرد هنا بعض الارقام التى تبين لنا شيئا من ثمرات الافكار وسيلها الجارف فى عصرنا الحاضر . ربما يذهل القارىء اذا علم أن فى أمريكا وحدها ظهر باللغة الانجليزية فى موضوع اللاسلكى فقط ٨٠ كتابا و١٠٠ مقاله فى سنة واحدة (١٩٢٦)

وقد ذكرنا فى مقال فى مجلة هلال أن عدد ماطبع من الكتب سنة ١٩١٤ فى ولايات امريكا المتحدة كان ١٧٥ مليون مجلد فأصبح فى سنة ١٩٢٥ - ٣٢٥ مليون مجلد . وان مايطبع من الكتب يكفى ان يكون لكل ولد وبنت ورجل وامرأة ثلاثة منها . ويبلغ ثمن هذه سنويا ١٥٠ مليون جنيه . ويطبع فى تلك البلاد وحدها يومياً من الجرائد ما يكفى واحدا من كل أربعة من السكان ، ويبلغ مايطبع من الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية ٢٥ الفاً ، وعدد مايوزع منها من النسخ يكفى أن يصيب كل بالغ من السكان أربع نسخ منها

أما فى المكاتب العمومية فقد بلغ مايعار من الكتب سنويا فى أربعين مدينة فى امريكا ٩٥ مليون مجلد

وبالاطلاع على الكتاب السنوى الذى نشرته صحيفة الديلي ميل فى لندرة نجد أن عدد ما طبع فى بلاد الانجليز من الكتب سنة ١٩٢٦ كان ١٢٧٩٩ مجلد رغم ما قام بتلك البلاد فى ذلك العام من الاعتصاب العام واعتصاب عمال الفحم وما نتج عنهما من الاضطراب

وبلغ ما بيع من الجرائد والمجلات فيها فى السنه عينهاما ثمنه ٤٥ مليون جنيه تقريبا وقد كانت هذه الارقام ١٤ مليون جنيه سنة ١٩١٢

وهذا الوثوب السريع فى كمية ما يقرأ وثمن ما يباع دليل على وجوب التدرب على سرعة المطالعة وكثرة الاطلاع

أن الغرض من سرد هذه الارقام لفت نظر القارىء الى الحقيقة الناصعة وهى ان نطاق المطبوعات قد اتسع الى ما يحويه الفكر ، ومجال التفكير قد امتد الى الافق فلم يبق بعد من سبيل الى تعويد الناشئة تلك الطريقة البطيئة المعهودة ، بل وجب أن تحذو البلدان الاميركية والاوربية فى تدريب الطالب على تقوية ملكة القراءة السريعة

ويطلق على هذا النوع من القراءة اسم القراءة الصامتة كما يتضح من عنوان هذا المقال ، تمييزاً لها من المطالعة بصوت مرتفع أما لغرض التمرن علي النطق الصحيح أو الخطابة أو استظهار القطعة التى تقرأ

ولاجدال فى أن القراءة العملية هى الصامتة لانها هى وحدها التى يستخدمها الناس توصلا لفهم العبارة أو المقالة أو الكتب أو الصحف التى يطالعونها ولابد أن لاحظ الكثيرون منا كيف أن اولئك الذين لم يكن لهم من

التربية قسط يذكر يطالعون على الدوام بصوت مرتفع ، فأذا قرأوا صحيفة يومية أو خطاباً جاءهم بطريق البريد أو كتاباً ، سهلا أو صعباً ، رفعوا أصواتهم حتى ولو كانوا جلوسا فى القهوات على قارعة الطريق

ولهؤلاء كل العذر فيما يفعلون ، أذا أن الطريقة التى يلجأ اليها خير وسيلة لتقريب فهم العبارة الى أذهانهم ، أذ أن مطالعتهم محدودة وتعودهم القراءة معدوم تقريبا .

ومن مبادىء علم النفس الاولية ان استخدام حاستين فى درس عبارة أقوى من استعمال حاسة واحدة ، فاذا ما قرأ الأنسان شيئاً قراءة صامتة بعثت العين رسالة بواسطة الاعصاب الى الدماغ فيعى مايقرأ لدرجة محدودة ، فأذا ماقرأ بصوت مسموع ، وصل الى الدماغ رسالتان فى آن واحد ، رساله من العين وأخرى من الأذن ، فتصبح العبارة المقروءة أقرب الى الفهم وأثبت فى الذهن ، أو كما يقول علماء النفس تترك أثراً أعمق فى طيات المخ .

ويجب أن يلجأ لهذه الطريقة اولئك الذين يريدون استظهار القصائد أو العبارات وبعبارة أخرى يجدر بالطالب الذي يريد التمكن من قطعة المحفوظات المطلوبة أن يقفل باب غرفته ويكررها على مسمع من نفسه

واننا ننصح دواماً الطلبة الذين لايحسنون نطق الكلمات صحيحة ، خصوصاً فى اللغات الاجنبية أن يكثروا من المطالعة فى مخادعهم وفى خلواتهم بصوت عال أو مسموع على الاقل ، لأن فى ذلك أكبر مقوم لألسنتهم ولو كان نطقهم بغير مدرس أو مرشد يقودهم الى الخطأ ، لان الغرض من

ذلك تليين ألسنتهم وتكوينها حتى يسهل تحريكها وتدريبها

وفى اساطير القدماء حكاية مشهورة لديموستين الخطيب فقد كان ديموستين خطيب الاغريق يتردد بعض الاحيان فى اخراج بعض الحروف من مخارجها . فوطد العزم على القضاء على لكنته بأن اخذ الحصا الرفيع ووضعه بين اسنانه حتى اذا ما تلعثم حالت الأحجار دون ذلك .

غير أن الحاجة الى حسن الالقاء والنطق كما قلت ضئيلة جداً أذا قيست بالحاجة الى القراءة الصامتة التى نستخدمها فى حياتنا اليومية ، حتى بين جدران المدارس

فالتلاميذ يذاكرون الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء فى المدارس الأبتدائية والثانوية ، وكذلك المواد الأخري فى الطب والحقوق والهندسة والزراعة والتجارة فى المدارس العالية ، وهم يستخدمون فى فهمها طريقة واحدة وهى القراءة الصامتة

ولكن اليس السواد الأعظم منا ، أن لم أقل كلنا ، نطالع ببطء لا مزيد عليه ؟ أذا كنت أيها القارىء العزيز فى شك مما أقول فادرس المسألة يوماً بنفسك . انظر الى انجليزي أو اميركى يطالع صحيفة أو مجلة أو كتابا وانظر كم من الوقت يستغرق فى صفحة ، واذا اتيحت لك الفرصة وسافرت الى انجلترا أو أميركا أو شمال المانيا أو هولاندا ودانيمركه أو السويد والنروج فارقب عن كثب تلك السرعة الهائلة التى يستوعبون بها فكرة أو موضوعا بعد مطالعته .

لقد شاهدت ذلك بنفسى وكنت اجهل الموضوع جهلا تاماً . كنت

أطالع الفصل فى الكتاب فى ساعة وقد كان يطالعه جارى أو جارتى فى الكلية أو المكتبة فى نيويورك فى عشر دقائق . رأيت ذلك فكنت أخجل من نفسى . لأن انجاز الأعمال فى وقت معقول والحركة والنشاط وسرعة الخاطر من المسائل التى يجب أن تكون جزءا من تربيتنا ، وتكون شطراً من حياتنا

ولا يسىء القارىء الفهم . فلكل قاعدة استثناء ، فان الكتب التى أشير اليها هى الكتب المعتادة التى لا يصعب فهمها أو التقاط المعانى من خلال سطورها ، فكتب علم النفس والفلسفة للمبتدئين وغير المبتدئين أحياناً تتطلب زمناً لفهمها ، كذلك الكتب التى لا يقصد منها سوي الأسلوب الكتابى ، والمقالات التى يقصد بها الحلاوة الشعرية ، والتنميق اللفظى ، والاسترسال فى الوصف ، والأبداع فى التعبير . هذه كلها بالطبع لها قيمتها الفنية ، ولعشاق الفنون الجميلة وقفة عند كل تمثال برع المثال فى صقله وتجميله ، و كل صورة تأنت فى سبكها ريشة المصور الفنان

هذا كله موضوع آخر . فأنك اذا تغزلت فى مطالعة قصائد المتنبى وترويت فى كتابات شكسبير وملتون ، وأعدت كلام لامارتين وموليير فأنما تفعل ذلك لدافع آخر فى الغالب غير تصيد المعانى .

وهب أنك تفعل ذلك فأنت معذور على كل حال لأن اولئك الكتاب يسمو بهم الخيال الى غير الجو المعتاد الذى نحن فيه فيحملون المعانى الى مستوى يكاد يكون محمولا على اجنحة الملائكة .

نعود الآن الى الموضوع . قلت اننى كنت أخجل ازاء سرعة أخوانى الفائقة فى فهمهم ومطالعتهم ونظراتهم الى العبارات كالنظرة العامة التى

يلقيها الطيار الماهر من سماء طائرته الى منازل المدن كتلة كتلة . ومجموعة مجموعة ، وحياً حياً

فطنت الى ذلك — وكنت حديث العهد — فأخذت أدرس السر وهو بسيط جدا . اولئك الغربيون خصوصا السكسونيون منهم أخذوا على عاتقهم توفير الزمن حتى فى قراءتهم فعودوا نفوسهم منذ نعومة أظفارهم ذلك ، حتى تراهم يباهون بعدد الكلمات التى يطالعونها فى دقيقة واحدة . وهذا العدد يحفظونه فى ذاكرتهم ، وكلما اتيح لهم زيادته بالتمرين والتكرار رفعوه مغتبطين وقالوا لأخوانهم عنه

ومن المفاجآت التى كنت لا أفهم لها معنى فى ذلك الوقت أن شيخا كان أحد طلبة الجامعة هناك بضعة شهور لتجديد معلوماته كان يفاخر ان حفيده سريع جدا فى المطالعة وأنه اسرع من ابيه وجده . ومن هذا يعلم القارىء أن سرعة الشخص فى المطالعة — طالبا كان أو غير طالب — كثيرا ما تكون محفوظة عند اصحابها ، كما يحفظ هواة السباحة والجرى والكتابة على الآلات الكاتبة والأختزال سرعتهم فيها .

ولا بد أن عيل صبر القارىء الآن . فالسؤال الذى يخطر على باله هو كيف يتوصلون الى تدريب الطالب على ذلك من صغره . الجواب على ذلك أن فى نهاية السنتين الاوليين من التعليم الابتدائى ، بعد ان يكون التلاميذ قد تغلبوا على صعوبة المطالعة البسيطة ، وفهم العبارة التى تناسب أفهامهم يأخذ معلمو اللغة فى الاكثار من المطالعة الصامتة ، والألحاح على الأولاد والبنات أن يستخلصوا المعنى فى أقل زمن ممكن . ويفعلوا ذلك تدريجاً فى بادىء الأمر

ثم يوجهون نظرهم دوماً الى أن الغرض أقتباس المعانى ، فينوعون كتب المطالعة ويحسنون تخير القطع الملائمة لسنهم وأهوائهم ، وتقوم المدارس عادة بأعداد عشرات الكتب لكل سنة من السنوات الدراسية وتوزيع كتاب من كل نوع منها على كل طالب وجمعها فى آخر كل حصة وحفظها فى مكتبة المدرسة

وقد سألت مرة معلمة كانت تدرس المطالعة لتلاميذ السنة الاولى فى مدرسة ثانوية فى آخر العام المدرسى عن عدد انواع الكتب التى قرأها طلبتها فى خلال العام المنصرم ، فأجابت انهم تمكنوا من قراءة مايقرب من اربعين كتابا . ويدهش السامع لأول وهلة ، غير ان الحقيقة هى ما ذكرت . توزع المعلمة فى أول الحصة لكل طالب نسخة من كتاب فى الحكايات التاريخية . وربما تقضى خمس دقائق أو عشر فى تدريب التلاميذ على المطالعة المعتادة بصوت مسموع ، وبعد ذلك يعطى لهم فرصة ثلاث دقائق مثلا لمطالعة الحكاية الثانية والوقوف على موضوعها وفى نهاية الوقت تبدى المعلمة ما ينذر بانتهاء ثلاث الدقائق وتأخذ فى سماع الحكاية منهم بلغتهم مع مراعاة الضبط فى تركيب الجمل بقدر الامكان

ولايلزم أن تسمع من كل طالب ولا أن يلقى الطالب الواحد مضمون الحكاية برمتها بل يكفى أن يسرد جزءا منها ، وتدون المعلمة ملحوظات على كل طالب حتى تعير التفاتة خاصة الى الضعفاء منهم . وتقوم الكتابة أحياناً مقام التسميع الشفوى فى تلخيص الحكاية . وهكذا تنتقل الى حكاية أخرى الى نهاية الحصة

ولايلزم أن يقرأ كل ما فى الكتاب من أوله الى آخره ، ولا أن

يوقف توزيع كتاب آخر حتى يفرغ من الكتاب الاول بل تتنوع الكتب كل يوم أو يومين أو ثلاثة أيام منعاً للملل والسآمة ، بشرط أن تقرأ كتب المطالعة المقررة فى نهاية العام بعد حذف مايتراءى للمعلم أو المعلمة حذفه

وللوصول الى السرعة المطلوبة فى المطالعة يرفع القارىء رأسه مبتعداً عن صفحاته بقدر مايسمح له نظره وراحته فى جلوسه ثم يمر ببصره على الصفحة فقرة فقرة ، مهملا فى الغالب حروف الجر والعطف وغيرها من الكلمات التى تنحصر وظيفتها فى ربط الكلمات والجمل والعبارات ، فيستخلص المعنى كما تستخلص القشدة من اللبن

وإذا أنعمنا النظر فى المطالعة الصامتة وجدنا أن القارىء عادة لا لا يقف عند كل كلمة تصادفه لمطالعتها بل يمر عليها مر الكرام مادام المعنى أمامه ظاهراً ، والمفهوم بالطبع أن الكتب السقيمة الغامضة التركيب ، المبهمة المعنى ، تجتنب بتاتاً فى المدارس فلا توزع على طلبتها

وبالطريقة السالفة يستطيع المدرس أن يحفظ بياناً بسرعة الطلبة ويجتهد فى زيادة هذه السرعة أسبوعاً فأسبوعاً ان لم يكن يوماً فيوماً الى أن يصل جميع الطلبة الى درجة حسنة فيها

ولا تنحصر فائدة المطالعة الصامتة فى السرعة فقط . فالسرعة هذه انما هى واسطة لغاية وهى توليد الميل الى المطالعة والاطلاع الواسع على ما ينشر يومياً من الكتب والمقالات القيمة

فاذا ما اطلع الطالب على أربعين كتاباً فى حصة المطالعة فقط كما حصل فى المدرسة السالفة الذكر ، وتكررت هذه العملية عاما مدرسياً

بعد عام ، أصبح طالب المدارس الثانوية مثلا ملماً بكثير من الأفكار الحديثة فى العلوم والآداب والتاريخ والأخلاق والفنون الجميلة وغيرها

ومن فوائد المطالعة السريعة أيضا تركيز الفهم وحصر الذهن وعدم شرود الفكر . ولا بد ان يشاركنى القاريء فى ذلك ، وهو أن القاريء متى تلكأ فى المطالعة وتباطأ فى الوقوف عند كل كلمة ، متنقلا من كلمة لكلمة ، ومن حرف لحرف ، شرد فكره وجمح الى عالم آخر قد يكون عالم الخيال . أما اذا اسرع القاريء فى قراءته لم يجد مجالا للخروج عن الموضوع لأنه يتنقل من فقرة الى فقرة رافع الرأس ملقيا نظرة عامة على الصفحة التى يطالعها

ولاشك أنه يشترط فى بلوغ السرعة المطلوبة حدة النظر أو على الأقل عدم ضعفه والحقيقة أن فى معاهد أميركا خصوصا الابتدائية منها اذ ما لاحظوا أن التلميذ ضعيف فى المطالعة سواء اكانت الصامتة أم المرتفعة ، كان أول مايخطر ببالهم هو ارساله الى طبيب العيون للكشف عليه وتشخيص الداء وتعيين المعالجة أو نصحه بلبس نظارة أوغير ذلك

كما ان من فوائد هذا النوع من المطالعة فى المدارس والاكثار من كتب المطالعة توليد الميل فى نفوس الطلبة الى الدرس وحب الاطلاع والاتصال بالعالم الفكرى على الدوام . فكم من الشبان خريجى مدارسنا الثانوية والعالية ، يعكف على مطالعة الكتب ويتبعون نظاما خاصا فى شراء مايصح أن يكون نواة لمكاتبهم الخاصة فى منازلهم ، وكم منهم يستعير الكتب بانتظام من المكتبة الملكية أو سواها مثلا ويخصص

شطرا من ساعات النهار فى زيادة محصوله وتثقيف عقله

اذا قيل أن الكتب العربية قليلة لاتقاس بالمؤلفات الكثيرة التى أشرت اليها فى أميركا وأوربا ، فانه قول مردود وعذر غير مقبول فمدارسنا الابتدائية والثانوية فى طاقتها استخدام مئات من الكتب الحديثة التى أنضجتها أذهان الكتاب المصريين والسوريين وغيرهم من ابناء اللغة العربية ، ونظرة واحدة فى قوائم الكتب التي تنشر فى المجلات والصحف وأذيال الكتب تدلنا على ذلك ، أضف إلى ذلك ان نطاق الكتب ـ اذا ضاق ـ وهو مالا اخاله ، فأمامنا بعض المجلات العربية فهى تسد فى هذا فراغا كبيرا

اوليس مما يخجل ان نري متعلما لايطالع سوى بعض الجرائد السيارة ويظن ان في هذا غاية التربية ؟ وا كثر من ذلك أليس مما يخجل ان ترى متعلما يصرف ساعة او ا كثر في جريدة لاتزيد صفحاتها على ثمان

كنت اسمع فى اميركا بعض الشكوى من المترددين علي دور التمثيل الصامت (السينما) لانهم يعتقدون ان الكتابة التى تظهر على لوحه السينما شرحا لموضوعاتها تنتظر وقتا طويلا عليها بغير مسوغ ، وفى هذا ضياع للزمن

وقد دهشت لذلك لانى اعلم ان المترددين على دور السينما فى بلادنا المصرية يشكون من العكس ، فانهم يعتقدون ان الكتابة على

اللوحات المذكورة تختطف اختطافا فلا يستطيع المتفرجون قراءتها ، وهذا كما لايخفى نتيجة ذلك النقص الكبير فى المطالعة وحصرها فى المطالعة المعتادة بصوت مسموع فى كتب قليلة بالية محدودة، وبتؤدة وبطء وتأن لاتتفق مع الحياة العصرية الحاضرة

فهل لاساتذتنا الكرام البدء فى تعويد أنفسهم أولا القراءة الصامتة السريعة فى حقل واسع من المكتب والمجلات الحديثة فى الموضوعات الحيوية اقتصادية كانت أم أدبية أم علمية ام اخلاقية ثم البدء فورا بتعليمها للطلبة الجيل القادم ؟

وسأجعل ختام مقالى هذه العبارة التى لابد ان يحسبها بعض القراء مغالاة منى ، وهوان السرعة المعتادة فى المطالعة فى كتب متوسطة السهولة فى اللغة الانجليزية تتراوح بين اربعمائة وستمائة كلمة فى الدقيقة

كما انه على هذا القياس يجب ان تكون سرعة القاريء هكذا في اللغة العربية ، فهل تريد ان تجرب سرعتك من الآن وتجتهد فى زيادتها يوماً بعد يوم وتدون النتيجة فى مذكراتك اليومية وتخبر اخوانك واصدقاءك عنها ! ؟

اختبارات الذكاء

مهام التربية كثيرة متشعبة ولكن يمكن حصرها فى عبارة واحدة وهى أحداث تغيير فى أولئك الذين يتلقونها ، وبعبارة أوضح يجب أن يكون غرض التعليم الاسمى أحداث تغيير فى نفوس المتعلمين . وما حجر التدريس وقاعات المحاضرات والمكاتب ومعامل الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى سوى أدوات ووسائل لهذا التغيير

وتوصلا لهذا الغرض يجب أن نكون على علم تام بهذه التغييرات ومقاديرها ولا يتأتى ذلك الا بمقاييس دقيقة

فللحرارة مقاييس تدعى ترمومترات وللكهرباء مقاييس تدعى امترات وكذلك الذكاء أصبح له مقاييس تدعى اختبارات

وقد كان مقياس الذكاء الي عهد قريب مجهولا اللهم إلا اذا اعتبرنا الدرجات التى تعطى فى الامتحانات معياراً للمواهب الفطرية فى التعليم أو ذكائه ، فلا يخفى أن الدقة فى تقدير الدرجات أمر محفوف بالمصاعب ان لم يكن مستحيلا . والارتكان على هذا التقدير فى مقياس الذكاء خطأ مبين . فكثيراً ما نشاهد تفاوتا كبيراً بين تقدير أستاذين يصححان ورقة واحدة . ففى فرقة واحدة قد يفشل ٣٠ فى المائة من الطلبة عند

أستاذ بينما لايرسب عند أستاذ آخر لنفس الفرقة الا اثنان فى كل مئة طالب

ودلت التجارب الواسعة التى قاموا بها فى ولايات أميركا المتحدة على صحة احدى الامتحانات بعد طبع مئة صورة من كل ورقة من أوراق الامتحان ، فجاءت النتيجة مدهشة ، وهو أن الدرجات التى وضعها الأساتذة على نفس ورقة الاجابة الواحدة كانت تتراوح بين ٢٨ و٩٠ فى المائة من النهاية الكبرى . وزيادة للايضاح أقول أن اجابة الطالب جيمس مثلا طبع منها مئة نسخة وأعطيت نسخة لكل أستاذ لمراجعتها وتقدير الدرجة ، فنال الطالب جيمس درجات تختلف بعدد الاساتذة تقريبا وقد أعطى له اكثر الأساتذة تشديداً ٢٨ فى المائة من النهاية الكبرى وأعطى له أكثرهم تساهلا ٩٠ فى المائة . ومن هذا يتضح أنه من الخطأ أن نعتمد على درجة الامتحان فى مقياس ذكاء الطالب

فلا بدع اذا فطن علماء التربية للأمر واستدركوا الخطأ واستنبطوا طرقا حديثة كمقياس المام الطالب بمواد الدراسة على اختلاف أنواعها أولا ولمقياس ذكائه ثانياً . ولا نقول أن هذه المقاييس بلغت من الدقة والكمال ما يصح أن يعتمد عليه كل الاعتماد فانها مازالت فى المهد إذ لم يمض عليها اكثر من بضع سنوات

وهنا يجب أن نفهم جيداً نوعى هذه المقاييس وهما : —

أولا — مقاييس الالمام بمواد الدراسة

ثانياً — مقاييس الذكاء

فمقاييس الالمام بمواد الدراسة هي الطريقة الحديثة لاختبار الطالب فى مواد الدراسة المعتادة وهي التى تقوم مقام الامتحانات المعروفة لدينا . وبعبارة واضحة هى الوسيلة التى بها نصل الى مقدار ما يعرفه الطالب من الجغرافيا مثلا أو التاريخ أو الطبيعة أو التربية الوطنية . فطريقة الامتحان المعروفة عقيمة كما قلنا ولا تدل دلالة صحيحة على قوة الطالب فى هذه المواد لأن المقياس متروك لتقدير الأستاذ الذى يعهد اليه مراجعة الامتحان . والتقدير يختلف باختلاف الأساتذة ولا يمكن أن يركن اليه كثيراً

ولكن يفهم مما سبق أن هذا التقدير لايرتكز على أساس ولا ضابط له . فالاستاذ مصطفى يقدر للورقة ١٢ على ١٥ والاستاذ بكر يقدر لها ٥ والاستاذ عبد الله يقدر لها ٩ وهكذا فالخطأ فى التقرير معيب

وما العمل اذاً !

المسألة بسيطة . يجب أن نستعين بعلماء التربية الحديثة ونستعير منهم النوع الأول من المقاييس أى مقاييس الالمام بمواد الدراسة توصلا الى تقدير دقيق مبنى على أساس متفق عليه . والمقياس غاية فى السهولة لايحتاج فى استعماله الي حذق أو مهارة — فهو كمقياس الحرارة والامطار والسوائل وغير ذلك

وهو عبارة عن خمس عشرة عينة من الخطوط . أولها لايقرأ مطلقا ودرجته صفر وآخر أصحها وأجلها ودرجته ١٥ ، وما على الاستاذ المكلف تقدير درجة الطالب محمد الامضاهاة خط محمد بالعينات المبينة فى المقياس والحكم فيما اذا كان خط الطالب أقرب شبهاً الي العينة رقم ١٥ أو ١٠ أو ١٢ ووضع الدرجة على هذا الاساس

وهنا يعترض المتشائمون — خصوصاً الذين من دأبهم مقاومة كل فكرة جديدة ويقولون ألا يختلف الاساتذة أيضا فى هذه المضاهاة ؟ والجواب أن التجارب دلت على أن هذا الاختلاف تافه جداً حتى يصح اغفاله ، خصوصا وان العينات قليلة . وينتج من ذلك أن الفرق بين العينة ١٢ مثلا والعينة ١٣ يكون واضحا جداً فلا ينتظر أن يخطىء الاستاذ فى المضاهاة خطأ جسيما . بل لابد أن يكون التقدير واحدا مهما تغير المصححون

ولنلاحظ هنا أمراً آخر . وهو أن استعمال هذه المقاييس يجعل الطلبة الممتحنين جميعهم فى مستوى واحد من حيث أساس التقدير . فلا يكون الطالب زيد عرضة لتشديد الاستاذ احمد ولا يشفع للطالب بكر تساهل الاستاذ مصطفي

وهناك فائدة أخرى هامة . هبنى سألت احمد الطالب فى إحدى مدارس الاسكندرية عن درجته فى الخط فقال لى ١٢ على ١٦ وسألت

كاملا الطالب فى احدى مدارس أسوان عن درجته فقال ٨ على ١٥ . فبحسب النظام الحالى فى تقدير درجات الامتحانات لايمكن أن أفهم أيهما المتفوق بأية حال من الأحوال . أما اذا كان هناك مقياس ثابت فالعقبة تزول

فى الوقت الذى كان فيه علماء التربية يعدون المقاييس العلمية ، أى الاختبارات المعروفة لدينا التى بها ينتقل الطلبة فى مدارسنا الى الفرق العليا ، كان علماء النفس يضعون اختبارات الذكاء وكلا النوعين يتفاوتان فى موضوعها وغرضها ، فالمقاييس العلمية تقيس معرفة الطالب للمواد الدراسية ، أى أنها تقيس المعرفة ، أما اختبارات الذكاء فانها تقيس العقل والكفاية ، أى المواد الخامة فى الطالب

وفى سنة ١٩٢٠ فحص علماء التربية فى أمريكا عن أكثر من مليون طالب وطالبة بواسطة اختبارات الذكاء ، كما أنهم اختبروا مليونين لمقياس المعرفة فى الحساب ، والقراءة والجغرافيا والتاريخ والخط الخ

وبمقارنة نتيجة الطالب الواحد فى الاختبارات العلمية أو ما يسمونه بالانجليزية (Achievment) بنتيجه فى اختبار كاء أو ما يسمونه بالانجليزية (intellgence quotient) اتضح لنا نسبة ذكاء الطالب لمجهوده فيتنبه المعلمون لهذا الأمر ويفرقون بين الطلبة الذين يرسبون نظرا لاهمالهم وتراخيهم وأولئك الذين يفشلون لضعف قواهم العقلية

وهذه النتيجة تذكرنا بالتبعة الكبرى الملقاة على عاتق المعلم الذى

يزجر التلميذ ويعنفه لفشله فى حين أنه لاذنب له ولا جناح عليه لأنه انما فشل لضعف عقليته وخلوها من الذكاء

ولا تقل عن ذلك مسئولية المعلم الذى يفشل تلميذه فيحمله ظناً منه أنه عاجز عن فهم دروسه لضعف عقليته ، في حين أن كتلة الذكاء فيه تخوله أن يكون بين الناجحين ان لم تجعله يتفوق على أقرانه

ولا يخطر ببال القارىء أن طرق مقياس الذكاء بلغت من الدقة والضبط ما يغتبط به ، اذ أن الابحاث فيها ما زالت في دور الابتداء ، غير أن هذا لايدل على أن الاختبارات العلمية المعروفة لدينا اكثر ضبطاً من اختبارات الذكاء ، فالاختبارات العلمية أيضا ، كما أسلفنا ، لاتدل دلالة واضحة على معرفه الطالب ، فمقياس معرفه الطالب للكيمياء مثلا أصعب بكثير من ايجاد الثقل النوعى للزئبق ، ومقياس الملم الطالب بعلم الاقتصاد أصعب بكثير من معرفة الصعود والهبوط فى قيمة العملة

واذا عددنا فوائد اختبارات الذكاء فاننا نجد فى طليعتها منفعة الطالب نفسه ، فان أهم ما يجب أن نرمي اليه فى هذا الشأن الوقوف عل سبب فشل الطالب ، لأن عدم نجاحه يضيع عليه الوقت سدى فيفقد الثقة بنفسه . واختبارات الذكاء تدلنا على سبب هذا الضعف والحد الأقصى الذى يجب أن يمكثه فى المدرسة ، ونوع العمل الذى يحسن أن يشتغل به خارج المدرسة

وسيكون لامتحانات الذكاء في المستقبل شأن عظيم ، وينال من المجتمع الانساني كل رعاية واهتمام وبتأثيرها يقف الرأى العام سداً منيعاً فى وجه ضعاف العقول من البالغين الذين يترك لهم الحبل على الغارب فيتناسلون ويكثرون وينتج من ذلك اشتداد وطأة الاجرام ، التسول ، والاستجداء ، والعجز عن العمل

وقد وجد بالاختبار أن الطبقة من الناس التى لايهتم بها أحد عادة هي التى تحتاج الى رقابة شديدة . ولا عجب اذا تشددت ولاية انديانا في أميركا في قوانينها وحرمت تحريماً باتاً زواج المجرمين المعتادى الاجرام

فقد دلت المشاهدات والاحصاءات ان الاجرام وضعف العقل متلازمان . ولا يعلم أحد مصدر الاشاعة المعروفة من أن المجرم يكون عادة ذكيا ، فى حين ان الوقع والارقام العلمية تكذب ذلك . فضعف العقل ونقص كمية الذكاء متلازمان

وابحاث لمبروزر وأشياعه فى هذا الموضوع مشهورة ، غير أن هؤلاء وضعوا همهم فى درس شكل الجمجمة وتركيب العين والاذن والاسنان والانف والبشرة والشعر ، ولكنهم أهملوا البحث فى مسألة العقل وعلاقته بالاجرام

واختبارات بينيه المشهورة تدل علي ان ٦٠ في المائة من المجرمين المعتادى الاجرام من ضعفاء العقول ، ولما كان مثل هؤلاء يكلفون الولايات المتحدة سنويا ٥٠٠ مليون ريال فقد كان الاميركيون اول من

فطن لهذا الامر واستنبط المقاييس التى يسهل التوصل بها الى معرفة ضعفاء العقول الذين يكونون اشد ميلا الى الاجرام من سواهم

ولا بد ان نشير هنا بهذه المناسبة الى ان أول من فكر فى هذه المقاييس احد علماء الفرنسيين وهو بينيه سيمون ، غير ان هذه الفكرة التى قد ابتدعها ذلك العالم الفرنسى لم تتخط مؤلفاته بل وقفت هناك ولم تتقدم علي يد غيره من بنى جنسه ، حتى قام علماء النفس أخيرا فى اميركا ودرسوا الموضوع درساً دقيقاً الي ان وصلوا اليوم فيه إلى درجة يشكرون عليها

واختبارات الذكاء تدلنا على التلاميذ أو الطلبة الذين يبلغون من الذكاء والقوة العقلية درجة ممتازة ، وهؤلاء لايزيدون عادة على ٢ فى المائة من عدد الطلبة ، بيد أنه يجب مراعاتهم خاصة حتى لا يضطروا الى البقاء فى الفرقة مع زملائهم الى أن ينقلوا الى فرقة أخرى أعلى منها فى آخر العام المدرسى ، بل يجب أن ينقلوا مرتين أو أكثر فى العام الى فرقة أعلى من التى هم فيها أو ينشأ لهم فرق خاصة إذا تسنى للمدرسة ذلك ، فليس من الحكمة فى شىء أن يعطل الطلبة نادرو المواهب ، بأبقائهم مع من هم أقل درجة منهم بكثير عقاباً لهم على ما أنعمت عليهم به الطبيعة من عبقرية وذكاء ممتازين

وليست فوائد اختبارات الذكاء مقصورة على الطلبة ، بل تتناول المجتمع الانسانى بأسره كما سبقت الاشارة . فالمحال التجارية مثلا والبنوك

والمصالح تتكبد خسائر فادحة من قبول الموظفين بها بغير أن تفحص عن عقليتهم ، فى حين أن المصالح الراقية اليوم لا تقبل بين موظفيها من لا يجوز اختبارات الذكاء على ما يرام . ونذكر بهذه المناسبة أننا فى أثناء وجودنا فى أميركا قرأنا أن بعض المحال التجارية الكبرى ترفض قبول الموظفين عند التحاقهم بوظائفها الخالية متى نجحوا فى اختبارات الذكاء نجاحاً باهراً ، لأنهم وجدوا بالاختبار أن اولئك الشبان أو الشابات ، الذين يشتعلون ذكاء فوق المعتاد لا يطيقون العمل ولا يكون لهم الجلد والصبر ، فلا يمضى عليهم وقت طويل فى الخدمة حتى يشكوا ويتذمروا ويطلبوا الاجور العالية ، ولا غرابة فى ذلك فانهم يدركون التفاوت العظيم بينهم وبين زملائهم فى الذكاء وسرعة الخاطر . ومعنى ذلك أن هذه المحال التجارية تكتفى بالموسطين الناجحين وترفض الاوائل والاواخر .

وقد أدت اختبارات الذكاء الى مواصلة البحث عن أسباب الضعف العقلى . وإذا أوجزنا هذه الابحاث فى كلمتين ، قلنا أن هذه الاسباب تنحصر فى الوراثة والبيئة ، ولا يقل تأثير الواحدة عن الاخرى ، فانه قد وجد بالاحصاء أن ٦٠ فى المائة من ضعاف العقول ، يرجع ضعفهم الى الوراثة ، كما أن حكومة الولايات المتحدة كتبت فى أحد تقريراتها مرة أن أسرة واحدة كلفتها ما يقرب من نصف مليون ريال وذلك لأن أفراد هذه الاسرة لازموا السجون مدداً متفاوتة

وقد فحصوا هناك عن عدد كبير من النساء العاهرات اللواتى يتجرن باعراضهن ، فوجدوا أن معظمهن من ضعيفات العقول ، وأكثر من ذلك أن تتبع بعض العلماء الاسر التى نبغ أفرادها فى الاجرام وأساليبه وحيله فوجدوا أكثر من ٦٠ فى المائة من أفراد هذه الاسر من ضعاف العقول ، ومن الذين اشتهروا بسوء السمعة ، بين سارق ، وقاتل ، وعاهر ومدمن الخمر ، وحامل سفاحا ، ونصاب ، ومزور وغير ذلك

وقد ذكرنا الحقائق السالفة تنويراً للاذهان ، ولو أنها لا تتصل بالتربية اتصالا مباشراً . وقد بلغت اختبارات الذكاء فى أميركا شأواً بعيداً ، حتى أن علماء التربية فيها يقولون أن أولئك الذين يجهلون علم النفس الحديث واختبارات الذكاء ولا يعتقدون بها كالذين يجهلون التعليم ولا يعتقدون به

ومن فوائد هذه الاختبارات أنها أظهرت لنا جهل المعلمين بتلاميذهم فطالما رأينا المعلم تخدعه أجابات تلميذه فيتوسم فيه الذكاء ، والحقيقة أن المعلم يقيس هذه الاجابات بغيرها من أجابات التلاميذ بغير مراعاة السن . فقد تكون الاجابة حسنة أو غير جيدة ولكنها لا تتناسب مع سن التلميذ ، فيجب اذن عند الحكم على ذكاء التلميذ أن تقارن سنه باجابته

وفى بعض الكليات فى أميركا توضع اختبارات عامة فى الذكاء

لجميع الطلبة عند الدخول بحسب أعمارهم ويتخذ الاساتذة نتيجة هـذه الاختبارات أساساً لمطالبة الطلبة ببلوغ درجة معلومة

مثال ذلك الطلبة الذين ينالون فى اختبـارات الذكاء درجة ممتازة كالتى لا يحصل عليها أكثر من ٢ فى المائة من الطلبة عادة ، ينبه عليهم أنه إذا لم تبلغ مجموع درجاتهم فى جميع المواد فى آخر العام ٨٠ أو ٨٥ فى المائة من مجموع درجات المواد ، فأنهم يعدون راسبين

وقد يجوز الطالب امتحان شهادة الدراسـة الابتدائية . لـكن لا يدل فى كل حالة على استعداده لتلقى الدروس فى المدارس الثانوية ونجاحه فيها ، فاذا أضفنا الى امتحان شهادة الدراسة الابتدائية أربعة اختبارات متنوعة من اختبارات الذكاء لتيسر لنا الوقوف على مقدار ذكاء الطالب وأهليته لمواصلة الدروس الثانوية أو بالعـكس . والي هذا يعزى السبب فى أن عدداً كبيراً من حملة الشهادة الابتدائية يقف نموهم العقلى عند حد المدارس الابتدائية أو السنة الاولى من المدارس الثانوية .

وينطبق هذا القول على عدد من حاملى شهادة الدراسة الثانوية الذين يحاولون الالتحاق بالمدارس العالية فأن مساعيهم تحبط بعد سنة أو أكثر ، مراعاة لوقوف نموهم العقلي وفقرهم فى الذكاء الذى تتطلبه الدروس العالية

وينطبق أيضا هذا القول على كل سنة من سنوات الدراسة ، ولذا فأننا إذا قمنا بأحصاء دقيق لعدد الطلبة الذين يواصلون دروسهم لنهاية المدارس الابتدائية ، نجد أن هـذا العدد يقل كثيرا عن عدد الذين التحقوا بالسنة الاولي من المدارس الابتدائية . ويقل هـذا العدد كلما اقتربنا من السنوات الدراسية فى المدارس الثانوية

ولا ندرى إذا كانت هناك أحصائية فى وزارة المعارف العمومية من هذا القبيل الا أننا قد رأينا أحصاءات عديدة من هذا النوع عن كليات ومدارس أميركا وأوربا . ولا شك أنه يجب فى هذه الاحصاءات مراعاة عدد الطلبة الذين يغادرون المدارس لأسباب مالية أو غيرها ، لأن البحث لا يتناول إلا الطلبة ضعـاف العقول أو الذين يقف نموهم العقلى عند درجة محدودة

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن هـذا الضعف قد ينتج عن أسباب صحية أو غيرها ، ومتى زالت الاسباب عاد الطالب الى قواه العقلية وبدأ نموه العقلى يسير فى مجراه

وبهذا يفسر سبب نجاح الطالب نجاحاً باهراً فى خلال الدراسة الابتدائية والسنتين الاوليين مثلا من الدراسة الثانوية والوقوف بعد ذلك عن النمو وعدم المقدرة على مواصلة الدرس والتقدم ، فقد تـكون الاسباب صحية في بعض الاحيان ولـكنها تـكون فى الغالب وراثية أو نتيجة مؤثرات أخرى في البيئة التى فيها يعيش

وقد دلت الاحصاءات على أن معظم أطفال الزنوج في مدارس ولايات أميركا المتحدة يقف نموهم العقلى فى الخامسة عشرة من سنهم ، فى حين أن الاطفال من الجنس الابيض يواصلون نموهم الى ما بعد العشرين

وقد يتساءل القارىء ، أين يكثر الذكاء ؟ فى الطبقات الارستقراطية ؟ أم المتوسطة ؟ أم السفلى ؟ دلت الابحاث على أن أنضج العقول وأذكاها قد تأتى من أحقر الاوساط واقلها ذكاء ، قد تأتى من اكبر الاوساط وأكثرها ثقافة وغنى وثروة

وفى كثير من المعاهد التى يهتم فيها ذووها بأختبارات الذكاء ، يذكرون أمام اسم الطالب الممتحن الوسط الذى يكون منه أهله ، حتى يقارنوا نتيجة الاختبار بهذا الوسط

وقد سبقت الاشارة الى أنه توجد الآن فى متناول المدارس ، اختبارات للذكاء متنوعة الغرض ، منها قياس كتلة الذكاء فى الطلبة والتلاميذ ، ويختص كل اختبار بسن معلومة ، أى أنه توجد اختبارات للطفل فى الثالثة من عمره ، وأخري للاطفال في سن الرابعة وهكذا

فالطفل الذى يكون عمره ثلاث سنوات ويدل ذكاؤه على أنه سنتان فقط ، يقال له ضعيف العقل ، والذى يكون عمره عشر سنوات ويدل ذكاؤه على أنه يعادل آخر فى التاسعة من عمره ، يقال له أقل من المتوسط بقليل ، والغلام البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، ويدل

اختبار الذكاء على أنه يعادل فى الذكاء غلاما فى الخامسة عشر من سنه ، يقال له أنه في الذكاء فوق المعتاد

وقد وجد بالاختبار أن الطفل الذى تكون سنه الزمنية ٣ وسنه العقلية ٢ يتأخر سنتين فى السادسة من عمره و٣ سنوات فى التاسعة و٤ فى الثامنة عشر من عمره

ومعنى ذلك أنه حينما تكون سنه الزمنية ٦ تكون سنه العقلية ٤ ، وحينما تكون سنه الزمنية ٩ تكون سنه العقلية ٦ ، وحينما يبلغ من العمر ١٢ ، تكون سنه العقلية ٨

وقد وجد بالاختبار أيضا أن التلاميذ الذين تتراوح درجاتهم فى اختبارات الذكاء بين ٧٠ و٧٩ فى المائة (أى بعد قسمة السن العقلية على السن الزمنية وضرب الخارج فى ١٠٠) يتقهقرون جداً فى دروسهم بعد أربع أو خمس سنوات على الاكثر من التحاقهم بالمدرسة ، كما أن التلميذ الذى تبلغ درجته ١٢٠ فى المائة فما فوق يكون أقوى من معظم تلاميذ الفرقة التى هو بها ، ويكون عادة بينه وبينهم تفاوت فى قوة الذكاء عظيم ، وقد يكون أكبر من أذكى تلميذ فى الفرقة بسنتين (عقليتين) . ويجب فى هذه الحالة نقل مثل هذا التلميذ الى فرقة أعلى فى الحال أو وضعه فى فرقة خاصة إذا تيسر للمدرسة ذلك

مثال ذلك . التلميذ أمين سنه الزمنية ٨ وسنه العقلية ١٠ ، فبقسمة السن العقلية على السن الزمنية وضرب الخارج فى ١٠٠ ينتج ١٢٥ ، ومن هذا يتضح لنا أن التلميذ أمين يجب نقله فوراً الى فرقة أعلى لأنه أقوي بكثير من رفاقه

وينبغي أن نذكر أن التلاميذ الذين لا ينالون أكثر من ٧٠ ٪ يعتبرون ضعاف العقول

ونتيجة الاحصاءات فى أميركا تدل علي أن أقل من ٦٠ ٪ من طلبة المدارس تتراوح درجاتهم فى الذكاء بين ٩٠ و ١١٠ ٪

وأقل من ٤٠ ٪ من الطلبة تبلغ درجاتهم فى الذكاء من ٩٥ الى ١٠٥ ٪ ، ولا يزيد عدد الذين ينالون ١٢٠ ٪ أكثر من ٣ ٪ من الطلبة ، ولا يزيد أيضا عدد الذين تبلغ درجاتهم ١٣٠ ٪ على ١ ٪

وفى مدينة من مدن أميركا التى يبلغ سكانها ٣٠٠ الف وجدوا أن في جميع طلبة مدارسها يوجد طالب واحد فى كل ٣٠٠ ممن بلغت درجة ذكائهم ١٤٠ ٪

وبمقارنة درجات الذكاء بين الذكور والاناث فى مدارس أميركا وجد أن الجنسين سواء مع الفروق الطفيفة التى أشرنا اليها

هذه كلمة وجيزة عن اختبارات الذكاء أردنا أن نزفها الى القراء وهي على قصرها تنقل الى الاذهان صورة مصغرة مما يجرى في ميدان

التربية اليوم فى أميركا من هذه التجارب التى تعود على المدارس والمعلمين والمتعلمين بالنفع العميم

ويا حبذا لو أخذ حضرات نظار المدارس وأساتذتها في العناية بهذا الموضوع وشرعوا فى ادخال مقاييس الذكاء فى مدارسهم حتى نصل الي النتائج التى وصلت اليها أميركا وأوربا بواسطتها

ولا يفوتنا أنّا اذا قمنا بهذه التجربة ، ألفينا حقول التجارب واسعة لأن أمامنا أرجاء فسيحة لم تستكشف ومعلومات قيمة لم يقف عليها من المربين أحد . فعدد الطلبة فى مصر اليوم التابعون لوزارة المعارف فقط فى المدارس الاميرية والاهلية الخاضعة للتفتيش يبلغ أكثر من ثلاثة أرباع المليون ، من بنين وبنات في المدارس الاولية والابتدائية والثانوية والعالية

فاذا أرصدنا مبلغاً فى ميزانيات التعليم للشروع في هذه المقاييس فاننا نقف على حقائق وآراء ومعلومات، ستظل دفينة مجهولة مدى الايام مالم نعمل على استخراجها من مكانها

ويا حبذا لو بدأت وزارة المعارف العمومية بوضع نواة هذه التجربة في خلال الامتحانات العمومية ، فان امتحانات الشهادات الابتدائية والثانوية بقسميها ، هيئات منظمة بديعة يسهل القيام بهذه المقاييس فيها ، وهذه العملية لا تستغرق من أوقات الطلبة الا بضع

دقائق ، وان كانت تتطلب زمنا طويلا فى المراجعة ووضع جداول الاحصاء والاستفادة منها

ولئن كنا على يقين من أن وزارة المعارف لا بد أن توجه عنايتها يوماً الى هذه المقاييس ، ان لم يكن آجلا فعاجلا ، إلا أننا نأمل أن عدم تمكن وزارة المعارف من القيام بهذا العمل حالا لا يمنع نظار المدارس من القيام بها على حدة من تلقاء أنفسهم ، حتى ينصحوا على الاقل لوالدى الطلبة ضعاف العقول أن يكفوا عن الدراسة عند حد معلوم إذا ما دلت الدلائل على أنهم لا يصلحون لها حتى يجدوا لهم عملا آخر فى ميدان الكفاح

العاطفة الجنسية

العاطفة الجنسية وكل ما يتعلق بها غريزة مطبوعه فى كل حى من الأحياء لازمته من يوم ولادته إلى جميع أطوار الحياة . ونجاح الطفل فى مستقبل حياته موقوف على توجيه هذه الغريزة إلى الناحية الصحية حتى يجد فى اشباعها ما يعينه على حل المسائل التى تعترضه . وكثيرا مايترك التلميذ سائراً على غير هدى فتكون هـذه الغريزة سببا فى وقوعه فى التهلكة وفشله فى الحياة . وسبب هـذا الاهمال من جهة الوالدين والمعلمين يكون منشؤه عادة الجهل ، وسوء الفهم ، والتعصب الاعمى للآراء القديمة . والخوف من تنبيه الاذهان إلى المسائل الجنسية وغيرها من الاشياء التى لاتستند الى أساس

إن سلامة العقل ، أو الصحة العقلية ، يقصد بها توافق الغرائز والطبائع التى تعمل فى داخلنا ، ومتى شعرنا أن بعض هذه الطبائع تتنافر فينا ، نظراً لما قيل لنا عنها من الخرافات ، ومايحيط بهامن الشكوك والظنون المبنية على الجهل والتقاليد ، أنبتنا الضمائر ووخزنا الوجدان ، ظناً منا أنانرتكب إثما أونوصم بعار وقدوددنا لونزعنا عنا تلك الطبيعة ، وألقيناها جانباً

وفى مقدمة الطبائع التى قد نظن أنها مدعاة لارتكاب الاثم ، وأتيان الفضيحة ، وأنها تتنافر مع اسمى الطبائع الاخري ، هى الطبيعة الجنسية . غير أن الهرب من هذه الطبيعة أو تجاهلها أو حبسها يعود على الصحة العقلية بالاضرار الجسيمة . وقد درس علماء النفس والتربية حالات كثيرة كان من سوء حظ التلاميذ فيها أن والديهم قد أعمى عيونهم التعصب والتمسك بالتقاليد البالية ، وعدم التسامح الناتج غالبا من اختبارات جنسية سيئة ـ وكان نصيب أولئك التلاميذ الخيبة وسوء العاقبة .

يتوهم البعض أن الطفل قبل سن البلوغ برىء من الطبيعة الجنسية ، لايشعر بها . غير أن العين التى ينظر بها الطفل إلى هـذه الطبيعة منذ ولادته الي سن الخامسة ، والمسلك الذى يسلكه تجاهها ، والعناية التى يوجهها والده نحوها ، هى التى ترسم له فى الطريق مستقبل حياته فيما يتعلق بهذه الطبيعة . والطفل منذ نعومة أظفاره ـ ذكراً كان أو أنثى ـ يشعر بهذه الطبيعة كما يشعر بالجوع والالم . وأكبر عامل فى التربية الجنسية هو مسلك الوالدين ازاء الطفل تجـاه الشعور الجنسى ، لان كل حركة أو أشـارة أوقول أوعمل يأتيه الوالدان أمام الصغير ، يرتسم فى ذهنه ويسجل فى نظامه العصبى .

ومن واجبات الوالدين أن يعلما ان كل شعور جنسى ، وكل ظاهرة جنسية تبدو من الطفل دليل على أنه مخلوق طبيعى ، تام الخلقة وذلك مما يزيد فى اغتباطهما وسرورهما

غير أنه ينبغى لهما فوق ذلك أن يدخرا المعلومات العلمية النافعة التى تعينهما على فهم الطبيعة الجنسية فى الطفل منذ ولادته الى مابعد سن المراهقة . ولندرس الآن أطواراً اربعة تمر على التاميذ فى حياته :

أولا — الطور الاول وهو الطور الذى تتجه فيه ميول الطفل ورغباته الى ذاته وهو يعتمد فى هذه الفترة على شعوره واحساسه فى اشباع طبيعته الجنسية لأن الاشياء الخارجية لا تجذب نظره اليها من هذه الناحية . ويلاحظ على الطفل فى هذا الطور مص الابهام ، وحك الفخذين بعضها ببعض ، و « جلد عميرة » . ولا يخفى أن الطفل يفعل هذا كله وذهنه خال من الطبيعة الجنسية . وكل من هذه الاعمال وأمثالها قصيرة المدى لاتدوم طويلا ، وهي المنفذ السهل الطبيعى الذى بواسطته يشبع الطفل هذا الميل الخفى فيه . وسرعان ما تستبدل بأشياء (وألعاب) خارجة عن ذاته . وعلى الوالدين ألا يتدخلا تدخلا مباشراً فى ميول الطفل الطبيعية فى هذا الدور ، بل ينبغي لهما أن يمهدا له كل سبيل ، حتى يحولا تيار هذه الميول الى أشياء خارجية عنه .

وتدخل الام فى ما يأتيه الطفل من مص الابهام مثلا يمنعه من تكوين عادة التخلص من هذا العمل ومايماثله ، وتحرير ذاته من سيطرتها عليه . ولتعلم ان مص الابهام ، وحك الفخذين ، و « جلد عميرة » عند الاطفال ليست بعادات ولا تكون كذلك الا اذا تدخلنا فى أمرها تدخلا مباشراً

وأظهرنا عدم رضانا عنها ، كزجر الطفل أو عقابه أو تغطية يديه . ولا يغيب عنا أن الطفل فى السن التى تسبق السن المدرسية ، يلجأ ألى هذه الاعمال أشباعا لطبيعته خصوصا فى الاوقات التى يستولى عليه فيها التعب والاستياء والفشل ، ولذلك يلزم أن نرسم له خطة يومية تجنبا لهذه الصعوبات

وسرعان مايأخذ الطفل فى فهم ذاته تدريجا ، ويرغب فى مقابلتها بالغير ، والسؤال عن الفروق الجنسية بين الصبى والبنت . ولابد لكل طفل بين الثالثة والخامسة من عمره أن يمر بهذا الطور ، طالما كان طفلا طبيعيا ، عاديا تام الخلقة . ولابد أن يدفعه حب الاستطلاع الى التساؤل عن أسماء اعضاء الجسم ووظائفها ، وسبب اختلافها فى الاناث عن الذكور . ومن الخطأ أن تشعر أمام الصغار بشىء من الحياء والخجل ، أو أن تشعره أن هناك مايدعو الى الاستحياء والتردد والحذر ، بل يجب أن نجيب عن أسئلته فى صراحة تامة ، وأن تكون أجاباتنا مستوفاة سهلة التعبير حتى لايفوت الطفل شىء منها

ومن الاسئلة التي لامفر من أن يوجهها ألاطفال هى منشأ المولود ، ومن أين جاءت أختـه الصغيرة التى ولدت أمس ، أو أول من أمس وأين كانت قبل ولادتها ، وكل ما يدور حول هذه النقطة . وليعلم الوالدون أن الطفل الذى لاتخطر له هذه الاسئلة ، اما أن يكون شاذاً ، وهـذا

نادر جداً ، أو أن يكون قد أدرك لأسباب ، أو فطن من تلقاء ذاته من حوادث تافهة مرت عليه أن مثل هذه الاسئلة غير مرغوب فيها ، وأن التحدث في هذه المسائل لاينظر اليها بعين الرضا . وتكون النتيجة التي لامفر منها ، هو أن يسعى سرا للاستطلاع عليها من الغير ، والا فاذا كانت اختباراته من هـذه الوجهة قد سببت له شيئا من الاستيـاء أو المضايقة ، فأنه يحبس هذه الاسئلة والمشاعر فى صدره ، فتبقى مكتومة دفينة حتى تنفجر يوما وتكون عواقبها وخيمه .

ن جميع الاسئلة التى يوجهها الاطفال إلى الغير بخصوص تكوين جسمه وأعضائه ، وما يتعلق بأجسام اخوته وإخواته ووالديه ينبغى أن تكون الأجابات عنه عرضية ، صادقة ، صحيحة ، صريحة ، كاملة ، كما لو كانت خاصة بالنوافذ والابواب والموائد ووظائفها . ويقول علماء التربية من الاوربيين والامريكيين أنه من الخطأ ان نستعيض بأسماء اصطلاحية لأعضاء الجسم غير أسمائها الصحيحة ، بل يجب أن نذكر للأطفال فى غير استحياء أسماء هذه الاعضاء ، حتى أعضاء التناسل منها ، كما هى ، لأن الطفل سيدرك عاجلا أو آجلا من مصادر أخرى أن هناك اسما حقيقيا لهذه الاعضاء وان والديه تعمدا غشه أو خداعه باخفائها عنه لسبب ما .

ووقوف الصغير على معرفته هذه الاسماء البسيطة تسهل عليه معرفته وظائف الاعضاء ، والوقوف على المعلومات التى يريدها . وكثيرا مايكتفى الطفل بجواب بسيط ، مختصر ، صريح ، فاذا قيل له مثلا ان المولود ينمو

قبل ولادته فى داخل أمه فانه يقنع بهذا جوابا عن السؤال : من أين أتي؟ وإذا سأل أسئلة أخرى فيلزم أن تكون الاجابات عنها صريحة وصادقة كذلك . وعلى الوالدين أن ينتظروا سلفا انهم سيواجهون هذ الأسئلة فيجدر بهم أن يأخذوا لها العدة . وليوقنوا ان أطفالهم الصغار ، اذا لم يبادروهم بهذه الاسئلة قبل حلول الزمن الذى يلتحقون فيه بالمدرسة لاول مرة ، فلا بد انه مر عليهم حوادث عرضية منعتهم من تقديم هذه الاسئلة اليهم ، والشعور بعدم لياقتها . وقد تكون المرضعة سببا فى ذلك . وقد يكون الخادم او الاطفال الآخرون فى الشارع . وفى هذه الحالة يجب أن يفتح الوالدون الباب بكل سياسة وبطريقة عرضية ، حتى يقودوا الصغير الى ولوج الباب وطرق الموضوع ، وبهذه الطريقة يصلحون مايكون قد أفسده الخدم والمرضعات ، وما يحتمل أن يكون قد تسرب الى الطفل بواسطتهم من المعلومات الفاسدة أو غير الصحيحة .

وتعويد الاطفال الولع بالنباتات والحيوانات وتربيتها ومشاهدتها تتناسل وتنمو ، من أحسن الوسائل غير المباشرة لتعليم الاطفال دروس الفروق الجنسية والتناسل . وقد ذكرنا شيئا عن طريقة الاستاذ أوفيدد كرولى فى بلجيكا ، وكيف أنه يجعل تربية الحيوانات الداجنة الزامية لكل التلاميذ . وفى مدارس رياض الاطفال المصرية يلجأون الى هذه الطريقة غير المباشرة اجابة عن أسئلة الاطفال غير أن الكثيرين من علماء التربية يؤثرون أن تتخذ الحيوانات كمرحلة ثانية ، وأن تكون

الاجابات المباشرة هى المرحلة الاولي . وذلك لأن الطفل يهمه أن يعرف قبل كل شيء من أين جاءت أخته الصغيرة التى « ولدت » منذ بضعة أيام وكيف أنها لم تجيء قبل ذلك اليوم ، وأين كانت إذاً ؟ ومتى أجيب عن هذه الاسئلة جيداً فلا بأس من دخول المرحلة الثانية وهى تقديم بعض الحيوانات الداجنة اليه ، كالحمام مثلا ، وتكليفه اطعامها والاعتناء بها ، لانه بهذه الكيفية لابد أن يشاهد كيف تتناسل وتلد . ومن ثم يعلم أن الانسان مثله مثل الحيوان والنبات .

ثانيا — ويمكن ان يقال إن الطور الثانى يشمل السنوات التى بين السادسة والثانية عشرة . ويأخذ الطفل فى هذه الفترة أن تتجه ميوله الجنسية الي والديه بعد ان كانت مرتكزة فى ذاته ، وتكون عادة هذه الميول من قبيل ميل الجنس لجنسه عند الاناث أى ان البنت تميل بطبيعتها الي امها (ميلا منشأه جنسى) . وقد تنقلب الآيه أحيانا وهذا نادر جداً ، وهو مايسمونه فى علم النفس بمسألة أوديب المعروفة فى اللغات الاوربية بعبارة Odipus Complex المشهورة . وقد كانت معروفة منذ عهد الأغريق ولا بد أن يذكر القراء رواية أوديب الملك التي كان يمثلها جورج ابيض وهي من وضع الفيلسوف سوفكليس . وتنسب هذه الظاهرة الشاذة الى اليوم لبطل هذه الرواية . وقد ظهرت فى انجلترا سنة ١٩٢٨ رواية من هذا القبيل فصادرتها الحكومة الانجليزية ولكنها سرعان

ماأعيد طبعها فى باريس بالانجليزية ثم وضعت منها سنة ١٩٣١ رواية تمثيلية دامت على مسارح تلك المدينة زمنا ليس بقصير

ونكرر القول أن الطفل لا يدرك معنى هذا الميل ولا يفكر فيه وغاية ما فى الامر أن أصله يرجع للطبيعة الجنسية . ويكون التفكير فى المسائل الجنسية عند الطفل فى السن التى بين السادسة والثانية عشرة أقل منها فى أية سن أخرى لان جل اهتمامه يوجه الى اللعب والمدرسة وغير ذلك من الاشياء الجديدة عنده . وقلما يفكر فى توجيه الاسئلة عن أعضائه الجنسية إلى والديه . ولكن هذا لا يتم ألا إذا كانت العناية بتربيته الجنسية تامة ، صريحة صادقة ، فى الفترة السابقة للسنة السادسة من سنه ، أما إذا اضطر الطفل لسوء تربيته قبل السنة السادسة أن يحبس ميوله ، ولم يجبه أحد عن أسئلته إجابة طبيعية خالية من التصنع والحياء ، فانه يميل عادة الى حب الاستطلاع والتفكير فى المسائل الجنسية فى السن التى تلى السادسة — أى إلى الثانية عشرة

وبالاختصار يجب أن يعنى المربون والوالدون بهذه الفترة التى قبل السنة السادسة فتكون مسالكهم أمام الطفل ، فيما يتعلق بالامور الجنسية حميدة ، وأن يتوخوا الصراحة والصدق ، وألا كانت العاقبة وخيمة .

ثالثا ورابعاً — وبين الطور الثالث والرابع فترة قصيرة تختلف باختلاف الافراد . ويبدأ هذا الطور بعد الثالثة عشرة ويقال له سن

المراهقة أو البلوغ وهى السنة التى يأخذ فيها الطفل فى النضوج ، وهى حلقة الاتصال بين الطفولة والرجولة . وفى خلالها يبدأ الصبى أن يشعر بالتغييرات الجثمانية التى تحدث فيه . فصوته يأخذ في الخشونة ، وشعره ينبت فى نواح كثيرة من جسمه ، وتزول عنه الملامح الانثوية التى كانت تلوح عليه فى طفولته . ويشب نحو الرجولة فى كل شىء . وكذلك الصبية تشعر بتغييرات كثيرة فى جسمها .

ولا فرق بين الطور الاول والطور الثاني سوى أن الطفل فى الطور الاول يميل لجنسه وفى الثانى يميل لغير جنسه أى أن الذكر يوجه ميوله فى بادىء الامر الى الذكور ، والانثى الى الاناث . وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه . أذ فى السنة السابقة لفترة البلوغ يكون الصبيان أكثر معاشرة واختلاطاً بالصبيان والفتيات بالفتيات ، فيستمر ما تمكن بين كل منهم من الصداقة والميل الى ما بعد البلوغ . ونظراً للجهل بمبادىء التربية فى هذه الفترة ، وعدم فهم الحالات النفسية من جهتى الوالدين والمعلمين يستمر الاطفال فى الطور الاول أحيانا زمناً طويلا ، وفى حالات استثنائية قد يبقى هذا الميل منهم طول حياتهم . وقد ذكر أدلر (من أشهر علماء النفس فى النمسا) أن الناس من هذا القبيل تتراوح نسبتهم من اثنين الى ثلاثة فى المائة وتكون هذه النسبة أعلى بكثير فى مثل بلدان تركيا ومصر وسوريا وفلسطين والعراق والحجاز وفارس وافغانستان نظراً لعدم اختلاط الجنسين

ويمكن تلخيص هذه المراحل الاربع فى ما يأتى . (١) فى المرحلة الاولى تتجه ميول الطفل الجنسية الى ذاته ، ويعبر عنها باسم « مرحلة النرجس » وهذا التعبير يرجع عهده الى اسطورة قديمة ملخصها أن انساناً عجيباً (او الهاً) خلق على صورة النرجس ، فنظر يوماً الي الماء ولما ان رأى خياله فتن به وعشقه ، وهو لا يدرى أنه ينظر إلي نفسه . وهام بخياله حتي كان يقضى معظم وقته علي الشاطىء للنظر الى معشوقه (٢) فى المرحلة الثانية تتجه ميوله الى والديه وفى العادة يكون هذا الميل نحو الام ورواية أوديب الملك تشير الى ذلك كما سلف القول (٣) فى المرحلة الثالثة يميل الذكور الى الذكور والاناث الي الاناث (٤) وفى المرحلة الرابعة يميل الذكور الى الاناث والاناث الي الذكور

* * *

لنعد الآن الى سن المراهقة فنقول ، أن الطفل فى هذا الطور يكون شديد الشعور بذاته ، كثير الحياء ، كثير الارتباك ، ميالا الى العزلة ، تواقاً الى الوحدة والخلوة . وفى بعض الاحايين يتقهقر الي الوراء فى أعماله المدرسية . وكثيرا ما يكون الصبى أو الفتاة عرضة للتأثر والانفعال الشديد لاقل حادث ، والى هذا يعزى دقة شعورهما ، وشديد إنفعالهما . اذا ما طرأ على أقاربهم أو والديهم أو أصدقائهم طارىء ، مهما كان تافها . ويرجع سبب هذا كله الي التغيرات التى تطرأ على أعضاء التناسل استعدادا للقيام بوظيفتها . وهذه المرحلة التى يجنى فيها الناس على البنت والابن

بالمعلومات السخيفة الكاذبة التى يسوقونها اليهم ، عن حسن ظن وجهل وسذاجة . فطوراً يؤنبونه على جنوحه الي العزلة والحياء ، وطوراً يزجرونه اذا ما تأخر فى أعماله المدرسية . وتارة ما يحذرونه من ميوله الجنسية — رغم كونها أهم حادث يشغله فى حياته فى تلك السن — ويخيفونه بأشياء وعواقب جثمانية وعقلية واخلاقية ، ما أنزل الله بها من سلطان

أما العقلاء من الوالدين فهم الذين يمدون بنيهم وبناتهم المعلومات الصحيحة الخاصة بالتربية الجنسية ، والصحة الجنسية والتناسل ، عند ما يجدون أنهم على أهبة الدخول فى هـذه المرحلة . والعقلاء هم الذين يفسرون لاطفالهم هذه المشاعر ، كأن يقولون لهم أن هذه الظاهرة التى تلهيهم عن دروسهم وألعابهم وغيرها من الاشياء ، والتى تسبب لهم هذا الحياء والارتباك ، إنما هى مرحلة يعبرها جميع الناس فى حياتهم

وينبغى على الوالدين أو من يقوم مقامهم أن يتجنبوا كل ما يثير العواطف والحساسية أمام أطفالهم ، والا يكون تعلقهم بهم بالغا الدرجة التي قد تمنع نموهم وانتقالهم الي المرحلة الاخيرة ، مرحلة النضوج . ومما يلاحظ أن كثيرا من الوالدين لم يوفقوا فى عيشتهم الزوجية ، واشباعا لعواطفهم يوجهون كل عنايتهم وعطفهم إلى أولادهم ، ويسرفون فى هذا العطف كل الاسراف ، ويغرقون فيه كل الاغراق ، حتى يتجاوز الولد

سن البلوغ وهو فى حركاته وسكناته وأطواره دونها ، ذكرا كان أو انثى. إن واجب الوالدين أن يغدقوا على أولادهم ماشاءوا من العواطف فى حدود المعقول ، كما إن واجبهم أيضاً تحريرهم منها تدريجياً

ومن المشاكل التى يواجهها الشبان والشابات الرغبة الشديدة فى إشباع العاطفة الجنسية بما يسمونه العادة السرية وآخر آراء الاطباء وعلماء الفسيولوجيا والنفس أن هذه العادة لاتسبب ضررا للجسم ولايتأتى عنها اضطراب فى العقل ، اللهم إلا إذا بلغ صاحبها حد الافراط : غير أن ضررها ينجم من أن صاحبها يتوهم أنها مؤدية للانحطاط فى القوى البدنية والعقلية ، والموت الادبي . ومنشأ هذا الوهم الخرافة التى طالما اتخذها الكتاب والمعلمون حديثاً طلياً ، وهى أن العادة السرية تضعف البصر ، وتنخر العظام ، وتذهب بالعقل ، وأن مستشفيات الامراض العقلية ملأى بفرائسها . ولايكاد يسمع الشاب هذه المخاوف وهذا التهويل والمبالغة وكل الشبان تقريباً من مرتكبيها — حتى يزداد عزلة وابتعادا عن الغير ظنا منه أن الناس متى نظروا اليه عن قرب ، كشفوا أمره وعلموا أنه من مدمنى هذه العادة الشنعاء ، وأنه أقل من زملائه منزلة ، وقد تكون هذه الاوهام سبباً فى اعتلاله واضطراب نفسه . وينتج أحياناً أنه يلجأ إلى تخيل مثل عليا فى الطهارة ونسيان العاطفة الجنسية ، تقوده فيما بعد الى اختلال فى الطبيعة الجنسية .

وخير مانستطيع عمله هو أن نمهد للاطفال قبيل سن البلوغ الالعاب وضروب التسلية ، والاختلاط جماعات ، تحت إشراف من يفهم الطبيعة البشرية ، والنصح المعقول ، والعطف والقاء الدروس المفيدة والمعلومات الصحيحة ، والاقلاع عن التهويل والتخويف ، وتوخي الصراحة والصدق فيما يختص بالعاطفة الجنسية

صناعة «الكلام»

من المظاهر الخارجية الكمالية التى تهتم المعاهد الامريكية بمراعاتها فى المعلم حسن المنظر والهندام أولا واجادة الكلام ثانياً . وأقول «كمالية» لانى أعتقد أن الامريكيين لم يشرعوا فى الاهتمام بها الا بعد أن استنفدوا عدة مجهودات فى نواح أخرى كثيرة . غير أنهم يعدون هذين الامرين من أهم الصفات التى تكون الشخصية والتى أشرنا اليها فى المقال الذى عنوانه « المعلم وعدته » . ولم يكن اهتمامهم مبنياً على أساس الخيال ، بل نتيجة اختبار وبحث . فقد وجد بالمشاهدة أن تلاميذ المدارس الابتدائية وطلبة المعاهد الثانوية والعالية يتأثرون من مظهر المعلم الخارجى وحسن القائه . فاذا توافرت فيه صفات المعلم الحقيقية واكتملت فيه هاتان الصفتان كان معلماً خليقاً بالاشارة اليه بالبنان .

وفى خلال زيارتي الاولى لامريكا كان بعض الطلبة فى مدارس المعلمين وكلياتها يقبلون على دروس الخطابة . أما الان فان الاقبال على دروس صناعة الكلام شديد جدا . ولما أن كثر عدد المعلمات والمعلمين الذين درسوا هذا الفن ، أدخل فى جميع المدارس الثانوية ضمن مناهجها . والغرض منه تحسين الصوت فى الكلام المعتاد والقاء الدرس ، فيما يتعلق

بالشدة والارتفاع والانخفاض والسهولة والاستمرار والعذوبة . وقد أصبح لهذا العلم أساتذة فنيون وسيدات فنيات وصنفت فيه مؤلفات عديدة . وليس من السهل بلوغ النجاح فى هذه المادة نظرا لحداثة سنها وصعوبة طرقها . غير أن سماع المحاضرات فيها من معلم ماهر أو سيدة نابغة لايقل لذة عن سماع الالحان الموسيقية من موسيقى حاذق .

ويوجد فى مكتب الاستاذ المختص بهذه المادة عادة جهاز كهربائى كبير لاعداد الاسطوانات المعدنية التى تسجل عليها أصوات الطلبة عدة مرات فى اثناء الدراسة حتى تقارن أصواتهم وكلامهم قبل البدء فى الدراسة وفى خلالها وفى نهايتها ومقدار النجاح الذى يصيبه الطالب يحدد الدرجة النهائية التى تعطى له نجاحا أم رسوباً .

وهذا الجهاز غريب جدا ونافع للغاية مع أن ثمنه لايتجاوز الف ريال وذلك لان به ثلاثة أشياء موضوع الواحد بجانب الآخر فيه . الاول لاسلكى والثانى جهاز لالتقاط الصوت فوق اسطوانة والثالث حاك (فونوغراف) معتاد . فاذا فرض أن مغنيا مشهورا سيذيع نشيده فى ساعة معلومة سبق النشر عنها (وهذا يحدث في أمريكا من الساعة الثامنة صباحا الى ساعة متأخرة من الليل يوميا) وتريد أن تحتفظ بصوته الرخيم ولحنه البديع فما عليك الا أن تضع اسطوانة معدنية (ثمنها عدة مليمات) بجانب اللاسلكى في الجهاز المشار اليه ، وتضع عليها ابرة مخصوصة معدة لذلك . وعند نهاية الدور تستطيع رفع الاسطوانة ووضعها فى الفونوغراف

الموجود فى الجهاز كما سبقت الاشارة ، فيمكنك أن تسمعها مثنى وثلاث ورباع فى أى وقت تشاء وهكذا اذا شئت أن تسمع خطبة رئيس الجمهورية وتحتفظ بها . وكثيرا ما نريد أن نحتفظ هنا بدرس القاه أستاذ مشهور امام فرقته واذاعه باللاسلكى ، فما علينا الا ان نسجل الاذاعة فى الوقت عينه بالطريقة السالفة الذكر . ومن الغريب انك عندما تقرأ عبارة او تتحدث حديثاً معتادا امام هـذه الالة بقصـد تسجيله في الاسطوانة تستطيع ان تشاهد بعينك الابرة تعلو وتنخفض وتتذبذب وتضطرب او تسير على وتيرة واحدة فوق دائرة مبينة على محيطها الارقام ، والمعلمة الى جانبك تشير الي مواضع الضعف والخفوت والشدة والارتفاع تبعاً لما تشير اليه الابرة من هذه الارقام . وماتكاد تأتي على آخر العبارات في نهاية الاسطوانة من جانبيها ، حتى ترفعها المعلمة من مكانها وتضعها فى المكان الذى بجانبها وهو الحاكى (الفونوغراف) ـ فتسمع صوتك يعيد كلامك الذى لم يمض على تسجيله سوى دقائق او ثوان معدودات . ومن الغريب ايضاً ان المعلمة تستطيع ان تضغط زراً امامها فيتضاعف صوتك وتظهر فيه غلطاتك مكبرة كما تظهر دقائق الرسم تحت المجهر

ما العيب فى مدارسنا

شهدت منذ أيام حفلة « أدبية » لطلبة كلية راقية من كلياتنا المصرية العالية ، وكان غرض الحفلة مساجلة فى موضوع اجتماعى كبير/ودعى اليه كبيران لتولى البحث فيه ، أحدهما للدفاع عن الوجه الايجابى والآخر عن الوجه السلبى ، كما دعى اليه طالب لتأييد فريق ، وطالبة لتأييد الفريق الآخر . وقد أقيمت الحفلة فى مدرج كبير يسع أكثر من خمسمائة شخص بقليل ، وكان عدد الحاضرين يربى على ستمائة ، معظمهم من الطلبة والباقى من غير الطلبة ، وبين هؤلاء نحو خمسين من الاوانس والسيدات

وكنت لا أحسب قبل اليوم الذي شهدت فيه الحفلة ، أن الفوضى وسوء النظام والعيب الخلقى بجميع مناحيه ، ومرض الذوق والرجعية ، تبلغ من نفوس شبيبتنا ما بلغت فى هذا المجتمع . ومما زادنى ألماً واستياء ، أن الحفلة قام بوضعها وتنظيمها وإدارتها الطلبة أنفسهم ، بغير أن يتدخل فى أمرها أحد من الاساتذة أو رجال إدارة تلك الكلية

ومما زادنى أسفاً أيضاً أن الطلبة ـ وهم أغلبية الحاضرين ـ لم يراعوا واجب المجاملة الجنسية . بل كانوا يجاهرون بنكات سخيفة ، ومزاح جارح ، ومجون بارد ، ولفظ قبيح ، يندى له الجبين خجلا ، بالرغم من حضور عدد وافر من الجنس اللطيف من سيدات وأوانس بناء على دعوة القائمين بشئون الحفلة

ولما كان النظام فى هذه الحفلة ينم عن عيب جوهرى فى نظام التعليم

فى مدارسنا المصرية ، وعلى الاخص الثانوية والابتدائية منها ، فقد رأيت أن أتخذ هذه الحادثة وهى ليست الأولى من نوعها ، سلماً أرتقى به الى تأييد آراء وابحاث ومباديء ، طالما نادينا بوجوب اتباعها ، وأسهبنا فى تعداد مناقبها ولزومها فى بناء أسس مدارسنا

أقول معاهدنا الثانوية والابتدائية ، لان الكليات العالية معاهد فنية ، تقتصر وظيفتها ، على تدريب الطلبة على استيعاب الحقائق والمباديء والأعمال التى تتصل بالمهن التى يستعدون لها اتصالا مباشراً . أما العادات والخطط والمبادىء الخلقية وروح الجماعة والتعاون وتهذيب الغرائز على اختلاف أنواعها — كل ذلك من عمل المدارس الثانوية والابتدائية

اذن فنحن لا نعيب الكلية أو الكليات التى ينتمى اليها أصحاب تلك الحفلة المشئومة التى أخفقت اخفاقاً معيباً

وأذن فنحن لا نعيب الطلبة أنفسهم الا قليلا

غير أننا نلقى تبعة اللوم برمتها على مدارسنا الثانوية والابتدائية ، على نظم التعليم ، على مناهج الدراسة ، على الاستذكار والحفظ ، على خزن المواد المتراكمة ، على اتخاذ الدروس فى ذاتها غاية لا وسيلة ، على أهمال الناحية الاخلاقية العملية ، وأعنى بالعملية التى لها أتصال مباشر بالحياة ، أى بالتعاون ، بتنظيم الاشياء ، بمراعاة شعائر الاخرين ، بحب الغير ، بالعمل مع الغير ، باحترم آراء الاخرين ولو كانوا مخطئين أو مخالفين لما نعتقد ، باحترام الرؤساء أو من بيدهم ادارة الحفلات أو الاعمال ، وان كانوا أقل منا دراية ومنزلة ، بالخضوع للقوانين والمحافظة عليها ، حفظا

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

للنظام بالاستعانة باخواننا الذين ينتمون لجماعتنا ، باحترام الاعمال التى نناط بها وأن كانت يدوية

أن مدارسنا تخرج أفراداً لا يصلحون إلا أن يعيشوا فى عزلة من الناس والمجتمع ، أن مدارسنا تخرج شبانا مجردين من التعاون ، والتعاضد ، وآداب الاجتماع ، ومراعاة النظام

وقبل أن نلخص الطريقة التى تستخدمها المعاهد الثانوية والابتدائية الراقية الحديثة توصلا الى النتيجة الحسنة فى تخريج شبان مهذبين مثقفين عاملين ، يجدر بنا أن نسرد هنا بعض العيوب التى شاهدناها فى الحفلة المشئومة ، بغير تفصيل ولا تعليق حتى يدرك القارىء من خلال السطور محاسن الطريقة الحديثة فى نظام التعليم اليوم فى أوربا وأميركا : —

(١) لم تخصص لجنة الطلبة مكاناً للسيدات واضطرت أن تجلسهن فى مقاعد وضعت على عجل فى مدخل القاعة ، فكن هدفا للخارجين والداخلين والواقفين على الاقدام . وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الطلبة لم يتعلموا تنظيم المسائل ، ووضع التصميم لما يريدون القيام به مقدما

(٢) كانت لجنة الطلبة تحاول المحافظة على النظام ولكن بقية الطلبة كانوا يشاكسونهم ويعاكسونهم ويأخذون منهم الكراسى الامامية عنوة ويرمونهم بالشتائم وقوارص الكلام . وقد كنت هناك قبل الميعاد بنصف ساعة شاهدت فيها هذه العملية المخزية تتكرر كل دقيقة ، وهذا مما يدل على أن الطلبة لا يحترمون اللجنة التى اختاروها بأنفسهم منهم ولم يتعودوا احترام اخوانهم المكلفين إدارة شئونهم ، ولم يتعلموا الحروف الهجائية من دروس التعاون الأولية

(٣) كان الطلبة الحاضرون وهم اصحاب الدعوة لايستقرون فى مكان واحد بل ينتقلون من مقعد الى مقعد ، ويقفون فى مدخل القاعة ويملأون الممرات والمسافات التى بين الكراسى ، مما جعل المرور متعذراً والنظام مستحيلا . وهذا يدل على أن الطلبة لم يتعلموا حب الخير والتفكير فى مصلحة المجموع ، فضلا عن ميلهم الى تشجيع الفوضى

(٤) انهم لم يستطيعوا ضبط عواطفهم ، وتحكيم عقولهم فقد حكموا فى المساجلة قبل ان يبدأ المتساجلون ، وقرروا آراءهم قبل سماع المتناظرين ، وعقدوا الخناصر على معاكسة مخالفيهم فى الرأى حتى أصبح الخطباء مهددين بالصفير والضوضاء كل بدوره . وهذا يدل على عدم احترام آراء الآخرين وعدم مراعاة آداب الكلام والخطابة والمناظرة

(٥) أنهم اساءوا الى المرأة وعرضوا بها وسخروا بمنزلتها ، خصوصاً بالطالبة الخطيبة ، رغم بلاغتها فى التعبير وفصاحتها فى الالقاء وقوتها الخطابية ووقفتها المؤثرة ـ فكأنهم لا أمهات لهم ولا أخوات ولا عمات ولا خالات

(٦) أنهم كانوا رجعيين فى تفكيرهم وشعورهم فقد كانوا يتأففون ويتذمرون فى مواطن كثيرة فى أقوال بعض الخطباء مما يدل على انهم لايسايرون فى آرائهم العصر الحاضر . ولو صدر هذا التأفف من جماعة من الرعاع أو متوسطى المعرفة لما كنا نستغرب ذلك . أما والسامعون من طلبة كلياتنا العالية الذين سيكونون قادة أفكارنا فى المستقبل ، فهذا مما يؤسف له

وفوق هذه الرجعية المتطرفة فانهم لم يكونوا منطقيين فى تفكيرهم فقد كان احد الخطباء يدلى ببراهين وأدلة منطقية قاطعة ، وحجج دامغة مبنية على حقائق لانزاع فيها ومع ذلك فقد كانوا يقاطعونه ، ولم يتعففوا عن هذه المقاطعة وحاولوا اسكاته مرات ، ولم يتورعوا عن قذفه ومحاولة اسكاته . وكان خطيب آخر على نقيض هـذا — لامنطق فى رأيه ، ولا دليل عملى أو واقعى ، بل كانت كل أقواله قضايا ادعى انه مسلم بها وأفكاراً زعم انها لاتقبل التأويل ولا التفسير ولا المناقشة ، فكان اذن « دكتاتوراً » بكل ماينطوى تحت الكلمة — ومع ذلك فقد كان كلامه يقابل بالتصفيق لا لحجة ولا لدليل ، بل لأن كلامه صادف هوى فى نفوس ضعيفة وعقول غير راجحة . وهـذا يدل على ان الشهادات الابتدائية والثانوية بقسميها ، التى نالوها فى مدارسهم الابتدائية والثانوية ماهى الا أجازة تنبىء أنهم ألموا ببعض حقائق جافة لانفع لهـا فى عالم الوجود ولا اتصال لها بالحياة .

. . . . . .

ماهى إذاً هذه الطريقة الحديثة التى تخرج شباناً وشابات مهذبين مثقفين غير ماوصفنا ؟

ان هـذه الطريقة تشمل مناهج غير مناهجنا ، ونظاما غير نظامنا . لقد رأينا قبل ذلك كيف ان مدارس وينتكا تربى فى تلاميذها المبادىء والعادات والاخلاق التى تنشدها ، والتى تنقص شبيبتنا ، واننى أنصح للقارىء الذي لم يطلع على ما كتبت آنفا ، أن يتصفحه جيدا ويقرأ بين سطوره النظم التى تخرج شبانا عاملين فى

مجتمع كبير ، لا أفراداً منعزلين عن العالم والحياة .

وليست مدارس وينتسكا الا عينة واحدة للمدارس الكثيرة التي يجدر بنا ان نتلقى عنها دروساً . ان مواد الدراسة هناك وسيلة لغاية ، والغاية التي ترمي اليها المدرسة انماء ملكات الطفل حتى يشب رجلا عاملا نافعا مدنياً محباً للتعاون .

اننا نعلم طلبتنا ايجاد مساحة قطعة من الارض ، لاوجود لها الا على السبورة وفي الكراسة أو الكتاب ، وهم يطلبون الى الطالب زرع قطعة من الارض وتعهدها بالري والتفليح ومشاهدة ما ينمو فيها ويكبر ويترعرع ، وبعد ذلك كله يعلمونه كيف يوجد مساحتها . ألا ترى ان ايجاد المساحة عندهم وسيلة لغاية ؟

اننا نعلم أطفالنا ايجاد حجم كتلة من الخشب او كومة من الاحجار لاوجود لها الا حبراً على ورق ، وهم يكلفون اطفالهم صنع مائدة أومقعد من الخشب ، او بناء حائط أو منزل ، وبعد ذلك يعلمونه ايجاد احجامها أو احجام ما احتاجته من الخشب أو الاحجار

نحن نطلب الى طلبتنا التكلم عن صنع السجاجيد وفوائدها ، بالكتابة عنها في غرف الدراسة ، في الساعة المخصصة للانشاء ، وهم يكلفون الطلبة زيارة مصنع للسجاجيد ، يغلب أن يكون في المدرسة التي هم فيها ، ثم يطلبون منهم وصفه ، كما رأته أعينهم .

تعال معي الى حجرة دراسة في مدرسة ابتدائية حديثة . ماذا ترى ؟ مائدة طويلة عليها كتب كثيرة من مكتبة المدرسة ، يرجع اليها الاطفال ، حتى يتعودوا الاطلاع والدرس والبحث متى كبروا . مقاعد

متحركة ، يستطيع الأطفال وضعها بالكيفية التى يطلبها الدرس . فتارة توضع بشكل دائرة أو نصف دائرة ، حتى تتمكن المعلمة من الجلوس وسطهم لسماعهم يتحدثون ويتعاونون على عمل من الاعمال . وتارة تصف المقاعد بازاء الحوائط حتى يخلو فضاء الغرفة لتمثيل حكاية سمعوها ، أو رواية تاريخية قرأوا عنها ، أو للقيام بحركات وتوقيعات رياضية غنائية ، او برقص تاريخى قديم ، أو عصرى حديث .

هنا فى ناحية من نواحى غرفة الدراسة تجد أصص الزهور والنباتات على اختلاف الوانها وأجناسها . هذه كلها قد زرعها الاطفال بايديهم ، وشاهدوا نموها ، واعتنوا بها وعدوها ، وعدوا البزور التى استخدمت فى زرعها ، ودونوا ملاحظاتهم على كل نبات وزهرة منها يوماً فيوما ، وكتبوا وتعلموا أسماءها ، ولما كمل نموها كتبوا تقريرات عنها وبهذه الكيفية تعلموا شيئا من الحساب والخط والهجاء والانشاء وعلم النبات والفلاحة وحب الاعمال اليدوية . وكذلك تعلموا شيئاً عن البلدان التى تنمو فيها تلك النباتات وتزهر وبذلك درسوا شيئاً عن مواقع تلك البلدان على الخريطة . وذلك قادهم الى درس شىء عن طبيعة تلك البلدان ومناخها وربما قادهم ذلك الى درس شىء عن تاريخ سكانها . وبذلك أضافوا درسى الجغرافيا والتاريخ .

ولكن كل هذه الدروس لم تكن الا وسيلة لغاية

وهناك دروس اخرى تعلموها وهى التعاون والعمل مع الآخرين لانهم اتفقوا جماعات عشرة عشرة أو خمسة خمسة للزرع والدرس والكتابة

والبحث فى الكتب التى على المائدة فى موضوعات الازهار والنباتات تحت ارشاد المعلمة .

وتجد فى ناحية أخرى من نواحى الغرفة أطفالا منهمكين فى رسم هذه الزهور وتلوينها بالوان الطبيعة وكتابة أسمائها عليها حتى تعلق بذاكرتهم . والمعلمة لاتتدخل تدخلا يقتل فيهم حرياتهم بل تشير اشارة وتقترح اقتراحا وتقول أظن أنه يحسن أن تفعل كذا و كذا ، لافعل كذا و كذا .

وبهذه المناسبة أذكر عبارة واقعية جاءت فى مجلة من مجلات التعليم حديثا . وهى أن معلمة كانت تراقب طفلا وهو يرسم وجه رجل. فقالت له. لقد رسمت العينين والأنف والرأس وكل شىء ماعدا الأذنين فأين هما؟ فأجاب الطفل . لاحاجة له الى الأذنين . فقالت المعلمة . ولكن كيف يسمع ؟ أجاب الطفل . ان هذه الصورة تمثل رجلا ينظر فقط لا رجلا يسمع ! !

هذه السذاجة وهذه الاجابة تبين لنا الحرية التى تمنح للطفل فى القول والفكر والعمل

. . . . أنظر الى جدران غرفة الدراسة . هنا لوح كبير للاعلانات وفوقه تجد أخبار الاسبوع مكتوبة ومصورة وموضحة بخطوط بيانية هى أيضا من عمل الأطفال

يجتمع الاطفال من كل الفرق مرة كل يوم فى قاعة كبيرة للمحاضرات وهنا يرأس الحفلة طفل عهد اليه ترتيب جدول الاعمال . فى بعض الايام يتكلم طفل بالنيابة عن فرقته عن موضوع من الموضوعات التى بحثوها

فى الفرقة ، وفى يوم آخر يقوم طفل آخر بنشيد أو توقيع على آلة موسيقية أو القاء خطبة أو أو الخ . وهنا فى مثل الاجتماع اليومى يتعلم الاطفال النظام والاذعان للرئيس والتعاون ، والصمت عند اللزوم ، والتصفيق فى مواطن التصفيق .

يعتقد أصحاب تلك المدرسة وأمثالها أن الاطفال كبقية النوع البشرى يتعلمون مبتدئين بالاشياء المحسوسة الى غير المحسوسة ، ومن الخاص منها الى العام .

فالتاريخ والجغرافيا يبدأ تعلمهما من المنزل والاسرة والطائفة ثم تدرج شيئاً فشيئاً الي الجهات الاخرى .

والعلوم « الطبيعية والكيميا والتاريخ الطبيعي الخ الخ » تبدأ بالزهور التى يشاهدها ويزرعها الاطفال ، والحيوانات التى يربونها ويألفونها ؟ والصخور والنهيرات التى يرونها بعيونهم ، والمصنوعات التى يشاهدونها فى المصانع .

والحساب يتعلمونه بواسطة حل ما يعترضهم فى الحياة من بيع وشراء ، مما يحيط بهم ومما يقومون بعمله فعلا . كذلك الكتابة ، يجب أن تكون للتعبير عما نزرعه ونصنعه ونبنيه ونهدمه ونشاهده حتى تكون مبنية على أشياء عملية واقعية ، لا وهمية خيالية نظرية .

ومتى تعلم الاطفال القراءة والكتابة والحساب مع علاقتها المباشره بالحياة كما أسلفنا ، سهل بعدئذ الاستمرار فى تعلمها على حدة ، أي بغير اتصالها بالحياة اتصالا مباشراً

وحتى يستخدم الاطفال أيديهم ، كما يهذبون عقولهم ، ينبغي أن نعلمهم الصناعات المختلفة . فمن الاطفال من يميل للنجارة ، ومنهم من يميل للطباعة أو النسيج الخ . وكما رأينا فى مدارس وينتكا ، ينبغى أن تعلم الطلبة فى درس التاريخ أن يقلدوا صناعة الملابس والسيوف وأدوات الصناعة كما كانت فى العصر الذى يدرسونه ، وبذلك يجدون للتاريخ معنى عمليا ويتولد فيهم الشغف بالتاريخ والميل لدرسه

قام الطلبة في كلية أجنبية فى القاهرة منذ بضعة شهور بتمثيل رواية عربية ، وكان التمثيل متقنا والالقاء واضحا . غير أن أحد المربين الذين حضروا الحفلة سأل أحد الطلبة ما يأتي : ـ

من أين أتيتم بمناظر الرواية ؟

ومن قام بتعليمكم التمثيل والالقاء ؟

فأجاب الطالب : استأجرنا المناظر من أحد ملاهي القاهرة وقام بتعليمنا وتدريبنا ممثل معروف يعمل فى أحد المسارح .

فهز المربي رأسه وقال يا للأسف . أن غرض إدخال التمثيل فى المدارس ليس هو التمثيل فى ذاته . انما هو وسيلة لغاية لاتظهر إلا بقيام الطلبة أنفسهم بعمل المناظر ووضعها وتوزيع الادوار واتقانها ، كل ذلك تحت إرشاد احد المعلمين ، وبذلك يتعلمون دروساً فى التعاون والعمل جماعات ، ويدرسون شيئا عن المناظر والستائر والملابس ويتعلمون كيف يعملونها ويعدونها . أما اذا اشتروا الملابس جاهزة أو استأجروها ،

واستأجروا المناظر وأحد الممثلين ، فان مثلهم يكون كمثل من يشترى شهادة البكالوريا أو الليسانس بمبلغ من المال ويعد نفسه متعلماً راقياً

هذا ما نحتاج اليه فى مدارسنا . أننا نظن أن تلقى الدروس المختلفة والمواد المتعددة تخلق منا رجالا ، والحقيقة أننا بعيدون عما ترمي اليه بعد الشمس عن الارض . أنا لفى حاجة شديدة الى تربية أبنائنا وبناتنا تربية تامة ، حتى يستطيعوا أن يخرجوا الى ميادين الحياة مزودين بعدد العمل والتعاون ومشاركة الجماعة والصبر والاحتمال واحترام آراء الغير والاستعداد لقبول الآراء الحديثة والتفكير العلمي المنطقى والنظام والتمدين

أننا لفى حاجة إلى الاكثار من كتب المطالعة النافعة الحديثة حتي يقف ابناؤنا على ما وصلت اليه الحياة فى القرن العشرين ، وما بلغته الصناعة والتجارة والزراعة والفنون والمخترعات والمستكشفات على اختلاف أنواعها . فلا يكفى أن يقرأ الطلبة فى العام الواحد كتابا أو اثنين ولا يكفى أن تقتصر كتب المطالعة على الناحية اللغوية بل يجب أن تتنوع فتتناول الفنون الجميلة وأخبار الصناعات وعجائب المخترعات والافكار الحديثة فى كل ما يمكن الوصول اليه

مسائل الطفولة

اتجهت أنظار العلماء القائمين بشئون التعليم أخيراً الى وجوب درس الطفولة من جميع نواحيها ، فالطالب الذى يتلقى العلم نشأ طفلا ، قبل أن ينزل الى ميدان التعليم المدرسى ، فمن الضرورى اذا درس نفسية الطفل والعوامل التى تؤثر عليه وغرائزه ومدى رعايته والعناية به ، حتى اذا ما ألمّ المعلم بمسائل الطفولة وكل ما يتعلق بها ، سهل عليه تخير الخطط القويمة والوسائل الفنية اللازمة التى تمهد للناشئين سبل التربية على أحسن منوال

ولعل الباعث القوي الذى دفع كبار رجال التعليم الى تعليق أهمية عظمي عن هذا الموضوع ، هي التجارب العملية والابحاث العميقة التى قام بها علماء النفس فى خلال السنوات العشرين الفائتة خصوصا منذ شبت نار الحرب العظمى ، كما سيأتي فى سياق الكلام

وقد فحصت مجلة سكول ريفيو الاميركية عن مناهج مئة وخمسين معهداً علمياً من درجة الكلية ، ودرستها فيما يتعلق بموضوعنا وذكرت النتيجة فى عدد يناير سنة ١٩٢٨ كما سيأتى : —

« بين المئة والخمسين كلية أمريكية التى أطلعنا عن مناهجها ، توجد مئة كلية من التى تشمل المواد التى يتلقاها الطلبة فيها ، مادة واحدة على

الاقل فى مسائل الطفولة . وتتنوع المواد التى تدرس فى هذا الموضوع بتنوع الكليات ، فـ ٥٥ ٪ من الكليات يهتم بتدريس سيكولوجيا الطفل ، ١٣ ٪ منها يلقى درساً فى رعاية الاطفال ، و٨ ٪ يهتم بتدريس التعليم الابتدائى ، و٤ ٪ يلقى دروساً فى التعليم الابتدائى . وفى المدارس الخاصة بالبنات فقط و٢٥ ٪ يلقى دروساً فى تربية الطفل والاعتناء به

« ولعل أهم ماتقوم به بعض هذه المعاهد فيما يختص بدروس الطفولة المعامل العلمية التى تجهزها للطلاب ، ويوجد الآن فى ٨ ٪ من هـذه المعاهد معامل فنية تمكن الطلبة من عمل تجارب توصلهم الي درس مسائل الطفولة درسا مبنيا على المشاهدة والمقاييس العلمية الدقيقة ، كما يدرس غيرهم الطبيعة والكيمياء وعلمى النبات والحيوان فى معاملها

« ودل الاحصاء على أن توزيع الدروس الخاصة بمسائل الطفولة بين معاهد البنين والبنات كالآتى

٨٨ فى المائة من المعاهد الخاصة بالبنات فقط تشتمل مناهجها على مسائل الطفولة و٧٣ فى المائة من المعاهد المشتركة بين الجنسين

(أى التى يتلقى فيها البنون والبنات دروسهم معا) تقوم بتدريس هذه المادة

١٩ فى المائة من معاهد البنين فقط تقوم بدرسيها « ويتضح من هذا أن مدارس الذكور أقل اهتماما بدرس مسائل الطفولة من مدارس

الاناث ، وهذا مما يؤسف له ، فأن الرجل والمرأة فى الحياة سيان فى الحاجة الى درس مسائل الطفولة »

. . . . . .

ولهذه المناسبة أذكر للقراء أشهر وأحدث ماكتب فى هذا الموضوع ، هو كتاب ظهر فى خلال هذا العام للعلامة الاستاذ دكتور وطسن ، صاحب كتب علم النفس ذائعة الصيت التى تتبع مذهب السلوكيين والبروفسور وطسن ، أستاذ علم النفس فى جامعة جون هوبكنز بأمريكا سابقا ، وكتابه المشار اليه ليس نتيجة الظن والتخمين والتعليق على كتب السلف هو نتيجة ابحاث فنية وتجارب علمية قام بها مع أساتذة آخرين من مساعديه كالآتى : —

أولا — فى مستشفى للولادة خاص حيث عدد الاطفال الذين يولدون شهريا حوالى خمسين ، كان الاستاذ ومساعدوه ، بعد ولادة الاطفال فورا وغسلهم والباسهم ، يأخذهم الى معمله السيكولوجى للمشاهدة والمراقبة والفحص .

ثانياً — فى مستشفى جامعة جون هوبكنز الملحق بكلية الطب فيها كان يفحص يومياً عن خمسماية طفل ويراقب حركاتهم وسكناتهم ويدونها يوميا وفى بعض الاحايين كان يتتبع حركات الطفل الواحد ساعة ساعة

ثالثاً — مشاهدة أطفال بين سن الواحدة والسادسة فى ملاجىء الايتام .

رابعاً ـ مشاهدة مثل منازل هؤلاء فى الطبقتين المتوسطة والعالية

والغرض من التجارب فى الاسبوع الاول لولادة الطفل مراقبة كيفية نمو حواسه ، وكيف يستطيع بعد ذلك أن يأتى حركات الجسم المعروفة. وكثيرا ما كان يدرس فى معمله صغار القردة مع بنى الانسان . والظاهر ان مراقبة النوعين دلته على ان صغار القردة يستطيعون اتيان الحركات التى يأتيها صغار بنى الانسان. فضلا عن تفوقها عليهم فى حركات أخري كثيرة

والدكتور وطسن واتباعه يعتقدون أن الطفل يولد كامل العدة ، أى أن سنه لا تساعده على نمو قوات أخري تظهر فيه فيما بعد . فالطفل مثلا فى نظره لا يخاف شيئاً وهو حديث الولادة ـ اللهم ألا أمرين ، وهما الاصوات المرتفعة أو المزعجة ، وعدم الاستناد الى شيء (أى خوف السقوط) ـ انما الخوف ينشأ من الاحتكاك بوسط يعلمه الخوف . وهذا المذهب يخالف مبدأ الوراثة لأنه يعتقد فى تأثير البيئة فى الفرد ولا يعلق أهمية لتأثير الوراثة

ويقول الاستاذ أن الطفل لا يخاف شيئاً الا اذا رافق هـذا الشيء صوت مزعج أو ما يدل على تركه غير مستند لشيء مما يؤدى الى سقوطه وقد استخدم للقيام بهذه التجربة أرنباً فى معمله ، فجعل الارنب يقترب من كل طفل تقريبا ، ولم يبد واحد منهم خوفا . ولـكن حينما اقترن اقتراب الارنب بقرع قطعة من الحديد بمطرقة خاف الطفل وانزعج وظل الطفل (وجميع الاطفال الذين كان لهم نصيب فى التجربة) منذ ذلك الحين يخاف الارنب كما رآه ، ولوحظ أن النتيجة واحدة عند

بعض الاطفال حتى ولو غاب الارنب عنهم سنة كاملة وظهر بعد ذلك .
وهنا أخذ الاستاذ يبحث فى كيفية ازالة الخوف من الاطفال نتيجة سوء التربية والبيئة . فحاول طرقا عديدة ولم يفلح حتى توصلت لمساعدته الدكتورة مارى كوثر جونز من جامعة كولومبيا التى وجدت أن الطفل ينسى خوفه من الارنب اذا وضع على مسافة بعيدة منه فى عين الوقت الذى يتناول فيه (الطفل) طعامه . وبعد ذلك يقرب منه تدريجا الى أن يأخذ فى مداعبته

ومؤلف الاستاذ يضرب على نغمة التفكير والتروى فى تربية الاطفال ، واستخدام الحنو الطبيعى فى حدوده وعدم المبالغة فيه . والكتاب مفعم بالنصائح الصحية والتعاليم الخاصة بالتناسل ، خصوصا تحت موضوع « العناية ليلا نهارا » وموضوع « ماذا أقول لولدى ؟ »

ويرمي الاستاذ الى جعل الطفل بعيداً عن البيئة التى تؤثر عليه تأثيراً سيئاً ، والوسط العائلى الذى قد يرمي به الى التهلكة — ولعل الانجليز ، حسب مبدئه ، حكماء فى الاهتمام بارسال أولادهم الى المدارس الداخلية حسنة السمعة .

. . . . . .

« ومما يدل على أهمية الموضوع ، ظهور كتاب آخر حديث فى عالم المطبوعات ، مؤلفته سيدة عالمة من علماء النفس تدعى بلانش وايل واسم مؤلفها

"The Behaviour of Young Children of the Same Family"

« مطبعة جامعة هارفرد »

تقول السيدة فى مؤلفها أنه لاتوجد بيئة واحدة للطفل ، بل بيئات متعددة ، بعدد أعضاء الأسرة الواحدة والأصحاب والجيران . وفضلا عن أن كل طفل يختلف عن الآخر فى تركيبه الطبيعى ، فان معاملته من والديه تختلف باختلاف حالة الوالدين المالية ، وسنهما ، ورغبتهما فى الاطفال أو عدم الرغبة وتحسين طرق التربية بالمذاكرة أو الاختبار الخ .

وقد قامت السيدة مع مساعديها بابحاث كثيرة ومشاهدات عملية فنية شبيهة بتجارب الدكتور وطسن، ولكنها كانت تبذل معظم أوقاتها فى مشاهدة الاطفال والغلمان والفتيات الذين يسلكون مسلكا معيبا ودلت نتيجة ابحاثها الطويلة بعد تتبع سيرة عدد كبير من هؤلاء « مع زملائها » الماضية والمستقبلة ، على أن هؤلاء المساكين « عدا ١٣ فى المائة منهم » لاعيب فى أبدانهم أو عقولهم ، انما العيب كله فى والديهم وبيئاتهم وقد شاهدت أيضا أن ترتيب الاطفال فى ولادتهم يؤثر فى تربيتهم فالولد الاول يصادف والدين غرّين قليلى الاختبار ، يتعلمان تربية الاطفال بواسطته بطريق التجربة والخطأ ويكثران من مداعبته وتدليله

أما الولد الثانى فيكون أقل عناية من والديه . والولد الاصغر يتوقف حظه على عوامل عائلية كثيرة ، وقد تكون فى الغالب الصالحة . ومن هذه العوامل مثلا تحسين حالة الوالدين المالية وزيادة اختبارهم

القلق التعليمى

كان القرن التاسع عشر مسرحا للقلق الصناعى وما تبعه من الثورة الاقتصادية والنضال بين العمل ورأس المال . ومنذ وضعت الحرب العظمى أوزارها تشبعت الآراء بمبدأ تقرير المصير الذى نادى به الرئيس ولسون فنشأ عن ذلك القلق السياسى ، ونزوع الامم المحتلة الى الاستقلال والحكم الذاتي . وفى خلال القرن العشرين ، خصوصا بعد الحرب العالمية ، تغيرت افكار المجتمع الانسانى فى كثير من الآراء الاجتماعية والنظم الحاضرة فيما يختص بالمرأة ، والزواج والطلاق ، والفضيلة والدين ، والقضاء والسجون ومعاملة المجرمون ، والاطفال والحيوانات ، والحقوق والواجبات ، ما إلى ذلك من المسائل التى نشأ عنها ظهور عبارة التقلقل الاجتماعي التى نراها فى كثير من الكتب والصحف والمجلات .

ولم يقف هذا القلق العالمي عند حد الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، بل انشب اظفاره فى التربية ، فثارت آراء المفكرين والعلماء ورجال التعليم ضد نظم التربية الحاضرة . وقد بدأت هذه الحركة ضعيفة منذ أقل من نصف قرن ، ولكنها أخذت تنمو شيئا فشيئاً بعد نهاية الحرب العظمى حتى بلغت أشدها فى خلال السنوات القليلة الفائتة الى يومنا هذا

وسيذكر القراء مظاهر هذا التقلقل فى المقالات العديدة التى نشرت

عن التعليم ، فى اليابان والصين وجزائر الفلبين ، وفى روسيا وتركيا ، والنمسا والمانيا وفرنسا وانجلترا وأمريكا ، وأخيرا الشكوى العامة التى رن صداها فى القطر المصري من قاصيه ودانيه ، ، فوق صفحات الجرائد والمجلات ، من طلبة وآبائهم ، ومعلمين ونظار مدارس أميرية وأهلية ، مما حدا بوزارة المعارف الى تشكيل لجان فنية لدرس الحالة فى التعليمين الابتدائى والثانوى ـ هذا عدا تغير المناهج فى عهد على ماهر باشا فى وزارته الاولى ، والاقتراحات العديدة التى وضعت توصلا الي تعديل هذه المناهج الاخيرة .

وعلى الرغم مما هو معروف عن انجلترا وفرنسا انهما شديدتا التمسك بأساليبهما التعليمية ومناهجهما الجامدة ، فانك لاتكاد تقرأ عددا من ملحق التيمس الخاص بالتربية ، إلا وتجد فيه مقالات متطرفة «راديكالية» نقدا للمناهج ، وتقدير الدرجات ، والامتحانات العامة ، وجهل المعلمين لنفسية المتعلمين ، واهمال طرق التعليم الحديثة ، والتعلق بأهداب المواد الدراسية التى اتضح عدم نفعها للطلبة فى الحياة العملية ، وعدم التمشى مع العصر الحاضر . وقد ظهرت أخيرا مجلة حديثة للتعليم فى انجلترا تدعى «العصر الحديث» ومحررة هذه المجلة السيدة بياترك انسر التى كانت رئيسة مؤتمر التعليم الذى عقد فى دانيمركه فى العام الماضى

وصحف فرنسا ومجلاتها لاتقل تطرفا عن صحف انجلترا فى نقد التعليم وان يكن من التكرار الممل أن ننشر واحدا فى المائة مما يكتب عن التربية فى ذينك البلدين العظيمين ، خصوصا وقد كتبنا فى فرص مختلفة الشيء الكثير . الا انه يجمل بى ان انقل فقرة اطلعت عليها أخيرا فى احدى جرائد باريس ، وهى بايجاز : -

« تتخذ الان أشد التدابير الناجعة ، لوضع حد للاستظهار ، والمبالغة فى تحصيل المعارف المجردة ، والحقائق الجافة ، فى المدارس الثانوية على الاخص . وقد بدأت حملة عنيفة ضد التعليم فى هذه البلاد (فرنسا) منذ زمن فاهتم وزير المعارف اهتماما يليق بهذه المسألة الخطيرة ، وعين لجنة للفحص عن الحالة من جميع وجوهها ، وتقديم تقرير عنها . وبين أعضاء هذه اللجنة ، وزير سابق ، وعضو فى مجلس الشيوخ ، وطائفة من كبار رجال التعليم . وقد تم وضع هذا التقرير . وأهم المقترحات التى جاءت به انقاص عدد الحصص الدراسية وتعديل المناهج تعديلا يناسب العصر الحاضر

« ويقول واضعو التقرير بهذه المناسبة ، انه فى حين ان عدد ساعات العمل فى المصانع والمحال التجارية والصناعية وغيرها من المصالح ، آخذة فى النقصان المستمر منذ سنوات عدة مضت ، فان ساعات العمل فى المدارس الثانوية ، باقية على ما كانت عليه منذ القدم وعلاوة على هذا فان الاستظهار والحفظ وحشو الادمغة ، فى زيادة مستمرة بين الطلبة ، خصوصا قبيل الامتحانات النهائية ، فى حين ان مستوى التعليم قد انحط انحطاطا ظاهرا »

وقد قال أخيرا احد الخبراء لفن التربية أن شبان اليوم من الطلبة سريعو الفهم ، ولا يصبرون على التكرار ، ولا يحتملون السفسطة ، وذر الرماد فى العيون والتفاخر والتباهي ، وهم لا يحتاجون الى طرق التعليم العتيقة ، ولا يستفيدون من اساليب التربية البالية ، ويستخفون بمواد الدراسة التى لا ارتباط لها بالعصر الذى فيه يعيشون ، والاعمال التى بها يقومون فى مستقبل حياتهم . واذا كانت هذه حالة المتعلمين من بنين وبنات ، أفلا يجدر بنا ان نعدل من مناهجنا ، ونبتكر طرقا فى التعليم جديدة ، ونظما مدرسية حديثة ؟

تقول السيدة بتنام وهى من أشد المشتغلين بالتربية غيرة ، وأعلاهم كعبا ، ما يأتى :-

« ان معظم طرق التعليم الحاضرة قد ابتكرت قبل المخترعات الحديثة من سيارة ، وتليفون ، وتلغراف ، ولاسلكى ، وصور متحركة (صامتة وناطقه) وطائرة ، و « رئيس جمهورية » فهل اساليب التربية اليوم ، تتمشى مع هذه المخترعات ؟ ان ابدع كتاب فى الجغرافيا ، وأتم مؤلف فى علم تقويم البلدان ، خريطة متقنة ، لطريق من طرق السيارات فى جزء من المعمورة ، او شطر من مملكة ، وأفضل طريقة لدرسها وتدريسها ، استعمالها استعمالا عمليا . تستطيع ان تعلم طلبتك من الدروس التاريخية بواسطة الصور المتحركة فى عشرين دقيقة ، اضعاف ما تستطيع ان تعلمهم فى سنتين ، بواسطة كتب مدرسية ، تفيض

بالسنوات والتواريخ الجافة . انني شخصيا قد نسيت كل ما تلقيته في المدرسة . وما علة ذلك الا ان تلك الدروس كانت بعيدة عن الحياة ، التي نزلت في ميدانها بعد مغادرتي المدرسة »

ومن اسباب الثوران، ضد أساليب التربية الحاضرة ، ما بلغته المرأة في اوربا وأمريكا ، وماتبع ذلك من أهتمامها بأمر اطفالها في مسائل التعليم ، اهتمامها بهم في مسائل الصحة والمأكل والمشرب والملبس . فالام في القرن العشرين من الطبقات الراقية والمتوسطة ، تشترك في مجلات التعليم التي تكتب لغير المعلمين، كمجلة « الاطفال » « التربية الناهضة » وتقرأ بلهف واهتمام كل ماينشر في المجلات الادبية ، ومايرد في الصحف السيارة نقدا للمدارس ، وشرحا للطرق الحديثة ، التي تقدم الطفل وتهذبه ، وتشترى الكتب والمؤلفات الحديثة التي تكتب لغير المعلمين (أي غير الفنية) وتشترك في انديه وجمعيات المعلمين والوالدين التي اشرنا اليها قبل الآن ، وتزور المعاهد التي يتلقى فيها العلم اولادها . وبالاختصار قد أصبحت الام (والاب ايضا) شريكة المعلم : وليس من يكره ان يهتم الوالدون بصالح بنيهم وبناتهم ، ويشاركون المربين في انهاض المدارس والاخذ بناصرها

ولا اظن القارىء ينكر ان الآباء في مصر (ولااقول الامهات للاسف) أخذوا يشاركون رجال التعليم في سرد عيوب التعليم في مدارسنا . ولهم بعض الفضل على كل حال ، في المناداة بالاصلاح ، بعد الاطلاع علي ماينشر في الصحف والمجلات من المقالات والملحوظات .

ولم يقف اهتمام الوالدين فى امريكا واوربا عند حد النقد ، وطلب الاصلاح ، بل تجاوز ذلك الى انشاء مدارس خاصة على تفقتهم ،وتشييدها على اساس النظم التى يظنونها ملائمة لاولادهم ، واولاد أصدقائهم وجيرانهم والمعجبين بآرائهم ، مع الاستعانة بالفنيين من رجال التعليم . وقد بلغت الاموال الخاصة التى انفقها مثل هؤلاء الافراد والجماعات ، مبالغ لايصدقها العقل . وقد انتشر هذا النوع من المدارس الى درجة عظيمة ، حتى ان رئيسا لجامعة شهيرة ، صرح منذ بضع سنوات ان لا يبعد ان تكون هذه المدارس فى مقدمة معاهد التعليم الراقية فى المستقبل فى اوربا وأمريكا

* * *

وربما كان من اشهر الاستاتذة الذين عملوا على انهاض هذا النوع من المدارس الحديثة ، فرنسيس باركر وجون ديوى اللذان اعجبا بروسو ، وبستالوزى ، وفروبل ، ونسجا على منوالهم ، مع احداث بعض التغييرات فى خطتهم التعليمية بما يلائم العصر الحديث . وكتاب ديوى « المدرسة والاجتماع » الذى وضع سنة ١٨٩٤ ، ومؤلفه الاخر «الطفل والمنهاج » سنة ١٩٠٢ ، كانا النبراسين اللذين استضاء بهما اصحاب المدارس الحديثة ، واللذين انتشر نورهما فى جميع انحاء العالم المتمدين ولا بأس هنا من اثبات المحور الذى دار عليه هذان المؤلفان فى هذه العبارة الوجيزة : —

الطفل هو البداية والوسط والنهاية ، ونموه وتقدمه الضالة المنشودة والمثل الأعلى . وهو وحدة المقياس (الذى به تقاس نظم التعليم) : وجميع مواد الدراسة خاضعة لنموه : وماهى الا وسائل وأدوات توضع لخدمة حاجات الطفل التى تؤدى الى تقدمه وارتقائه . وليس غرض المدارس مجرد المعلومات والمعارف ، بل تكوين الشخصية . ان واجبنا ان نبدأ بالطفل ، وننتهى به . فهو وحده الذى لاجله ترسم الخطط المدرسية ، لالأجل مواد الدراسة . ان طريقة التعليم المثلى الوحيدة ، هي طريقة العقل ؛ التى بها يلتمس الاشياء ويتفهمها وما مواد الدراسة الا طعام روحي ، ومواد مغذية فى حيز امكان الطفل . ان مصدر كل عمل مائت وميكانيكى وجامد فى معاهد التعليم ، هو جعل حياة الطفل واختباراته خاضعة للمناهج . ولهذا السبب اصبحت عبارة «المذاكرة» مرادفة لكل ماهو مرهق ، وكلمة « الدرس » صورة اخرى لواجب ثقيل شاق »

ومن أصعب المسائل التى يواجهها المعلمون الان ، مقدار ما يفرض على الطالب استيعابه وتعليقه فى ذهنه من الحقائق والمعلومات . ففى التاريخ مثلا ، هل يعد الطالب مقصرا اذا لم يذكر السنوات التى سقطت فيها القسطنطينية ، واكتشفت امريكا ، وتولى لويس الرابع عشر الحكم وخذل نابليون فى معركة واترلو الخ الخ ؟ وماهى الحوادث التى تعد ذات

أهمية وينبغى على الطالب عدم نسيانها ؟ وماهى الوقائع التاريخية التى لا يطالب التلاميذ بها اذا فرض أن الذاكرة خانتهم فيها ؟ وهذه الاسئلة عينها يمكن توجيهها فيما يتعلق بالجغرافيا والكيمياء والطبيعيات وسائر المواد الدراسية تقريبا. ان الحد الفاصل بين الاساسى والمهم ، وغير الاساسى وعديم الاهمية ، غير واضح تماما .

بيد أن ثمة مبدأ عاما قد وضعه علماء التربية الحديثة ، ويجدر بواضعى المناهج ونظار المدارس والمعلمين ، أن يضعوه نصب أعينهم . ونثبته هنا بحروف واضحة لاهميته : —

لا يفترض ان يكون الطالب دائرة معارف متحركة ، حتى يطلب منه استيعاب حقائق معلومة ووحدات من المعارف والمعلومات . حسب المتعلم ان يتعود الاخذ بناصية الوسائل والادوات والمصادر التى يتمكن بها من البحث عن المعلومات التى يريد ، وايجاد الحقائق التي يرغب فيها عند الحاجة اليها

وجهل المعلمين بهذا المبدأ ، حتى فى المدارس العالية والكليات ، يجعلهم لا يفرقون بين العام والخاص ، والاولى والثانوي ، فيطالبون الطالب بمعرفة تامة المسائل ، وكأنهم لا يعلمون أن الطبيب لا يتقن معرفة الداء بدرسه ، بل بممارسته عمليا ، والمحامى لا يأخذ بناصية القانون باستظهار مواده ، بل بتطبيقه فى القضايا التى تعترضه فى مهنة المحاماة ، وجهل

هذا المبدأ ، يعاب المعلم أحيانا اذا رجع الى مذكراته · أو القاموس أو الموسوعة فى الحصة ، ويعاب الطبيب اذا رجع الى مؤلفات الاختصاصيين أمام الرياسة . ولجهل هذا الميدأ ، لايستطيع حامل البكالوريا فى بلادنا ، اذا لم أقل حامل الشهادات العليا ، أن يبحث عن موضوع ويلم بجميع اطرافه اذا وضعته فى مكتبة جامعه ، حافلة بالمؤلفات وفهارسها ، والموسوعات والمجلات ومجلداتها .

ومن الغريب أن يلعب غير المشتغلين بالتعليم فى أوربا وأمريكا دورا هاما فى هذا التقلقل أو « الثورة » ضد وسائل التربية الحاضرة كما أشرنا وأغرب من هـذا أن تكون الحال كذلك فى مصر ، وهى حديثة فى نهضتها صبية فى معهد حضارتها . وما ينبغى أن يحمر له رجال التعليم خجلا ، أن ينبههم الى خلالهم غير المعلمين ، وأن يرفع صوته عالياً من هو خارج عن دائرة المدارس . وهذه الصحف أمامنا ملأى بالمقالات والشكاوى ممن لا يزاولون مهنة التعليم ، وممن لا يضعون المناهج ، ويرسمون الخطط ولا نستطيع أن نحصر أسماء أو توقيعات هؤلاء فى خلال السنوات القليلة الماضية ، وحسبنا أن نذكر حضرات رؤساء التحرير فى الصحف والمجلات ، والاستاذ عزيز بك خانكى المحامى ، والاستاذ لطفى بك جمعه المحامى ، والانسة مى والنائب الاستاذ محمد بك نصار « وآباء التلاميذ » . ولاينكر المطلع على الاحوال أن يقظة وزارة المعارف العمومية لمعالجة المسائل ودرسها ، ومحاولة اصلاحها ، منشؤها تلك الاصوات الصادرة من خارج دوائر التعليم ، اكثر منها داخل هذه الدوائر

ولكن ماذا تتطلب هذه الثورة بالضبط ؟

أن الاجابة عن هذا السؤال تحتاج الى جميع المقالات التى نشرناها مضافا اليها أضعافها . غير أنه لاجناح من وضع ملخص للمبادىء العامة التى تسير عليها مدارس النهضة الحديثة وهى المبادىء التى يتطلبها القائمون « بالثورة » : —

(١) الصحة (٢) التعلم بواسطة العمل واستعمال اليد اعانة «للرأس» (٣) تجنب تقييد الحرية ومنع الضغط الخارجى (٤) مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ سواء أكانت بدنية أم عقلية ، وسواء أكانت خاصة بالذكاء أم الطبع أم الكفاية الخ (٥) تعاون الطلبة تعاونا اجتماعيا حتى تنمو جميع الصفات الخلقية (٦) أن تكون المدرسة ميدانا يظهر فيه المتعلمون مواهبهم وكفاياتهم (٧) ان تعين معاهد العلم الطالب على الاخذ بناصية وسائل العلم وأدواته ، لاعلى خزن طائفة من المعلومات ، وابرازها كلما طلب منه ذلك ، وبذلك يصبح مجرد موسوعة متحركة (٨) أن تكون طرق التعليم واسطة لتفكير التلميذ (٩) الغاء اليد الحديدية المستبدة التى ترهق التلميذ بنظم الامتحانات ، وطرق تقدير الدرجات التى لاتتفق مع مبادىء سيكلوجيا التعليم (١٠) أن يكون المعلم مرشدا ودليلا ، لا « رئيس فعله »

***

يقول جون ديوى تعزيزا للنقطة الاولى ، اننا اذا كنا نحترم الطفولة ، فاول قانون ينبغى اتباعه ، تنمية الجسم تنمية صحية ، والمدارس

الناهضه تضع الصحة فى المقدمة . ومعنى هذا لا تقف جهودها عند حد الفحص الطبى ، ووصف الدواء لشفاء العلل، والتمرينات البدنية والالعاب الرياضية المختلفة .

بل المعنى ان تكون الحياة المدرسية ، من أولها الى آخرها ، ملائمة لنمو الجهاز العصبي عند الطفل ، فالمقاعد يلزم أن تكون متحركة ، حتى تتوافر الحرية المطلقة للتلاميذ فى غرفة الدراسة والمعنى أيضا ان نتجنب أجهاد التلاميذ وارهاقهم بالاعمال والواجبات فوق طاقتهم . هذا ويجب الاكثار من أعمال اليد والحركة حتى يتوافر التوازن بين النشاط العقلى والنشاط البدنى

ومما يعزز نظرية التعلم بواسطة العمل وأهمية الاعمال اليدوية وجعلها من وسائل التربية الناجعة ، ان أقرب الحيوانات الينا « القردة » هي الوحيدة بين سائر الحيوانات التى تعمل بأيديها ، وتستخدمها فى تمييز الاشياء بعضها من بعض وتفهمها اياها

ويلزم فوق ذلك وضع عدد قليل من الاطفال فى السنوات الاولى فى حجرة واحدة ، والاكثار من فترات الراحة ، والدرس والعمل خارج المدرسة ، والتعاون بين المدرسة والمنزل ، حتى يقف الوالدون والمعلمون ، على السواء ، على حالة الطفل البدنية والعقلية ... واذا لزم الامر ، ينبغى التضحية بالاعمال المدرسية فى سبيل الصحة ، ولا عكس مع تعديل طرق وضع الدرجات العقيمة ، ونظم الامتحانات المرهقة ، اذا لم يمكن الغاؤها بالمرة

ومن التشبيهات الغريبة التى عثرت عليها فى مقال لمؤلف حديث يندى باللائمة على مدارس أوربا المتأخرة ، هذه العبارة التى لابد أن يلذ للقراء الاطلاع عليها وهى : — « أن جعل الاعمال المدرسية مقصورة على الكتب ، وارهاق أرواح الطلبة فى بعض مدارس أوربا المتأخرة بالمطالعة والدرس والاستظهار ، وارهاقهم بالمؤلفات والمجلدات الضخمة هى آفة الغربيين ، كما أن الحشيش آفة الشرقيين » ومما يدعو الى الاستغراب في هذا التشبيه السخيف أن الكاتب كان أستاذاً فى جامعة شرقية ، وأن طلبته الذين عاش بينهم عدة سنوات كانوا شرقيين ، ولا أظن أن مقدار الحشيش الذي استهلكه هؤلاء فى خلال المدة التى مكثها معهم ، كانت كافية لتبرير هذا التشبيه . وكان تشبيهه يكون أقرب الى الحقيقة لو قال ان ولع المدارس الاوربية المنحطة بالكتب كولع المدارس الشرقية بها

ولا ندعى أن نهضة التعليم الحديثة بلغت حد الكمال انما هي كسائر النهضات الاخرى الاقتصادية والسياسية والزراعية والعلمية ، تزوع الى الاصلاح وما هذا التقلقل فى عالم التربية سوى محاولات متفرقة متعددة طلبا للاصلاح . ومهما قيل فى هذا التقلقل ، فان المبدأ العام المتفق عليه أن السكون موت والحركة حياة والوقوف تقهقر والسير تقدم ؟

اهم مبادىء التربية

من العبث أن نلج باب البحث فى موضوع عام كهذا بغير أن نحصر كلامنا فى جهات محدودة منه ، وأن نقتصر على الجهات التى أعتقد أننا أحوج اليها أكثر من سواها . وليست هذه المبادىء التى سأدلى بها مبتكرة من عندي ، ولست أظن أنكم ترحبون بها ، فيما اذا كنت قديراً على ابتكارها . ولكنها قواعد أساسية اتفق عليها معظم علماء التربية — ولا أقول كلهم — سأنقلها اليكم بكل ما أوتيت من أمانة فى النقل . لعلكم تجدون فيها ما يفيد : —

١ — فلسفة التربية : الفلسفة فى الأصل نظريات ومبادىء . وقد كانت الى عهد قريب — فى ميدان التربية على الاخص — عديمة الاهمية لأسباب عدة . أهمها أنها كانت لا تفرق بين التعليم وما وراء المادة وثانياً أنها كانت مجرد آراء جدلية ، ونظريات لا تستند الى حقائق علمية ، أو تجارب عملية أو أرقام إحصائية . أما اليوم فقد أصبح قوام الفلسفة فى التربية التجارب الواسعة النطاق ، التى قام بها علماء النبات والحيوان والفسيولوجيا والنفس ، وأحدث الآراء التى أجمع عليها علماء الاقتصاد والاجتماع وغيرهم

وبمعنى آخر أن الفلسفة المشرف العام على العلوم الحديثة ، تضم

العناصر التى استخرجها العلم من شتى النواحى ، وتقدمها للتربية فى شكل نظرية ، فمبدأ فقاعدة ، تسير عليها الموكل اليهم أمر التعليم الي أن يتضح بطلانها

واذا قلنا أن الفلسفة نظريات ، فلابدّ لنا أن نذكر أن العالم فى تطوره يسير من الطور العملى الى الطور النظرى ، ثم ينتقل من النظرى الى العملى وهكذا كالفرخة تلد بيضة والبيضة فرخة الى مالا نهاية له . ويزعم غير العارفين ، أن النظريات أو الفلسفة ، لا نفع لها فى التربية أو فى أى شىء آخر ، لأنها مجرد أحاديث جدلية ، ويكفى أن اسمها « نظريات » . ولعلهم يخلطون بين الفلسفة والسفسطة : غير أنه من المشاهد أن النظريات ما هى الاثورة فكرية على حياتنا العملية . فقد كان الناس فى كل العصور زراعاً قبل أن يدونوا نظرياتهم وآراءهم فى الزراعة ، وكانوا مشتغلين بالعلاج والتطبيب قبل أن يكونوا فلاسفة فى الطب ، وكانوا منجمين وفلكيين ، قبل أن يكتبوا نظرياتهم فى التنجيم والفلك . وكانوا كلما أنسوا فى أعمالهم عيباً أو ضعفاً أو تقصيراً ، شكوا وتذمروا ، وتفلسفوا ، لعلهم ينتقلون من فلسفتهم الى حالة عملية أرقى وأوفى بالغرض المقصود

والفرق بين الفلسفة الحديثة والقديمة — كما أسلفنا — هو أن الثانية كلامية ، والأولى نتيجة العلم والتجارب العلمية . والفضل فى الفلسفة الحديثة يرجع الى مبتدعها الفيلسوف الانكليزى فرنسيس بيكون ولولاها لم تتقدم إلا بعده بزمن طويل .

أما فيما يختص بفلسفة التربيـة فقد وضع لنا جهابذتها من روسو وبستالوزى وهربارت الى هربرت سبنسر ووليم جيمس وجون ديوى فلسفات عدة على أساسها شيدت مدارس منتيسورى فى ايطاليا ، وجان جاك روسو فى سويسرا ، وأوفيد دكرولى فى بلجيكا ، واكول دي روش فى فرنسا ، ومدارس المشروع ووينتكا فى أميركا ، ومدارس نظام دالتون فى اميركا وانجلترا واليابان وغيرها

ونحن فى مصر قد وضعنا نظام التعليم العام منـذ سنة ١٨٣٦ ولم نوفق الى اليـوم الى فلسفة معينـة ولا عجب اذا سارت سفينتنا بغير دليل .

٢ — غاية التربية : هذا موضوع اطلنا البحث فيـه فى الاجتماع السالف وليس هناك ما يدعو للعودة اليه . غير اننى أريد أن الفتكم الى أمرين هامين فيه وهما :

اولا — أن الغاية كالقانون تنمو نمـواً ، وتتكون تـكويناً تبعاً للأحوال ، ولا توضع . وكما أن الانسان اقتبس فـكرة عجلات العربة من الأحجار المتدحرجة ، وفـكرة البلونات من الأوراق الذابلة تعلو فى طبقات الجو ، وفـكرة القوس والنشاب والموسيقى الوترية من الحبال المشدودة ، فـكذلك الغايات تقتبس من الظروف والحاجات البشرية ووظيفة التربية العمل على تحقيقها .

ثانياً — أن الغاية تتغير بمضى الزمن ، وتقلب الاحوال . ومدنية القرن العشرين سريعة التغير ، سريعة العدو ، فلا مندوحة إذاً من أن

تتغير غاية التربية بهذه السرعة . ولا غرابة اذا رأينا كتب التربية تدون غايات أمس ، وتستبدلها بأخرى اليوم وتشير الى غايات اليوم لتحل مكانها سواها غداً

٣ — وظيفة المدرسة : أولا — يعترض بعض علماء التربية على القول ، أن وظيفة المدرسة اعداد النشء للحياة ، لأن المدرسة هى شطر منها ، ولكن اذا تساهلنا فى التعبير باعتبار المقصود من الحياة هنا ، حياة البالغين القادرين على كسب قوتهم ، فيجب أن نقول أن وظيفة المدرسة أعداد النشء الى المثل الأعلى فى الحياة أو الى الحياة المهذبة المصقولة

ثانياً — وظيفة المدرسة التقرب للعالم ، والتغلغل فى الحياة . كانت المدرسة فى القرون الوسطى تعيش فى عزلة عن العالم الخارجى ، فتلجأ الى المعابد والمساجد والاديرة تارة ، والى دور الملوك والاشراف أخرى ، ولا يزال الكثير منها اليوم فى منعزل عن البيئة ، قليل الاتصال بالحياة ، فى مناهجه ونظمه وطرق التعليم فيه

أن التربية مسألة اجتماعية ، بمعنى أن وظيفتها اكتشاف معانى الاشياء من حيث علاقاتها بالغير . فالفأس ، والمحراث ، وسكينة الجراح ، وريشة الفنان ، وأزميل المثال ، كلها عند الطفل جوفاء المعانى ، ما لم يدرك وظائفها ومغازيها فى الحياة . والرقص ضرب من الخبل ، ما لم يتصل بمعانى التوقيع ، والموسيقى .

ثالثاً — والتربية كالصدقة أو الاحسان ، ينبغى أن تبدأ بالمنزل أو الأسرة . ثم تتسع بالتدريج الى الخارج وبعبارة أخرى أنه ينبغى لنا أن

تمهد الطريق للطفل حتى يبدأ بادراك البيئة الصغيرة التى يعيش فيها. وفهم المنزل والأسرة ثم القرية أو المدينة ومن هنا تتسع أمامه الأفق حتى تمتد الى المجتمع بأسره

ومدارس القرون الوسطى ، ومدارس اليوم الشبيهة بها . تعيش فى المجتمع . ولكنها ليست منه . وطلابها فى المجتمع ، ولكنهم فى عزلة منه. ومثل هؤلاء — من هذه الناحية — مثل المجرم ، دائرة افق ضيقة . ومبادئه معدودة على الأصابع وهى الولاء ، والشجاعة والكرم والصبر على المكاره . وحب التضحية . ولكن مجموع هذه المبادىء فى صالح الدائرة الاجرامية التى ينتسب اليها . وضد المجتمع الانسانى .

٤ — مناهج الدراسة : أولا تكون مناهج الدراسة ضيقة ، جامدة مقيدة ، اذا ماساعدت النشء على النمو فى ناحية على حساب ناحية أخرى فمادة الحساب تكون ضيقة جداً ، اذا اقتصر نفعها على مجرد تصريف الأرقام ، وفهم العمليات الحسابية . والرياضى الذى لا يتعدى فهمه حدود الارقام ، والعمليات الحسابية مثال يحتذى به فى ضيق العقل . ومناهج الحساب الحديثة الراقية ، التى تزيح الستار عن غوامض الطبيعة ، وتفتح للطالب مجال التفكير فى سر الكون فسيحا

ومادة الفسيولوجيا مثلا مفيدة للصحة ، ولكن الاهم من هذا أن ترسم أمامنا بصورة ناطقة جلية ، الطريقة العلمية التي نقضى بها على الاباطيل والخرافا ، ونقطع بها دابر الدجالين والعرافين والعرفات

يزعم البعض أن مواد الدراسة الادبية تغذى النفس أو الروح ،

وأن مواد الدراسة العلمية تغذى العقل فقط . وهذا بهتان وكذب لان الفاصل بين الادب والعلم ليس واضحا بهذا المقدار . وأهم من ذلك أن علم النفس الحديث ينكر وجود الروح والعقل . أو كما قال أحدهم انه فقد روحه منذ عشرين عاماً ، وعقله منذ خمسة أعوام .

وقد أسرف الذين يفرقون بين العلم والادب فى القول ، فادعوا أن قلب رجل العلم فى عقله ، وعقل رجل الادب والفن فى قلبه ، أي أن رجال العلم لاقلوب لهم ، وأن رجال الادب لا عقول لهم

ثانيا — أننا لا نستطيع أن نتنبأ مقدما عن أية المواد تنفع طفلا معلوما وأيها لا تنفعه . وينتج عن هذا أنه ينبغى أن نقدم له مانراه صالحا من مواد الدراسة الاساسية ، ثم نقدم له بعد ذلك عدداً كبيرا منوعا من المواد ونترك له الحرية فى تخير ما يلائم مواهبه ، بشرط أن تكون هذه الحرية مقيدة بالنصح والارشاد من معلميه . وفى هذه الفترة يلزم أن نزوده بالمعلومات العامة الصحية . والاقتصادية والاجتماعية مصحوبة بعد قليل بالمواد التى تظهر فيها مواهبه وتنمو

ثالثاً — المناهج فى عرف الطبقة الناهضة من المربين اليوم فى المرتبة الثانية من الاهمية . وان هى إلا وسيلة تنشدها معاهد التعليم توصلا الى خلق الجو الملائم للمتعلم حتى ينمو ويحيا حياة ملؤها الشبع والامتلاء والنشاط والعمل والتفكير . وما مواد الدراسة سوى مصنع عملى من مصانع الحياة . يجد الطفل فيه مشكلا حقيقيا من مشاكل العالم . فيعمل الفكرة ويبذل الجهد فى حله والخروج من مأزقه ظافرا

ولا غرو اذا أصبحت المناهج غيرها بالأمس . فقد حذف منها مواد كثيرة . وأضيف غيرها مما له اتصال مباشر بالحياة كالاعمال اليدوية والتربية البدنية والدروس الاجتماعية والصحية والصناعات العامة والفنون الجميلة . ولا غرابة اذا تبدل نظام الكتب المدرسية . وتحرر الطلبة من رقها واستعبادها . فبعد أن كانوا يدرسون المادة فى كتاب واحد لا يحيدون عنه قيد شعره ، ويعدون كل ما يرد فيه قضية مسلمة لا مناقشة فيها ، أصبحوا يدرسون الموضوع الواحد والمسألة الواحدة فى عشرات من الكتب . وأصبحت المكتبة وغرفة المطالعة أهم ماتعنى به المدرسة . ولا بدع اذا أطلقنا على المناهج اليوم اسم مناهج النشاط . وتخيرناها بشرط أن تلائم طبيعة الفرد أولا ، وحالة المجتمع ثانيا

رابعاً — لقد أثرت المناهج الحديثة فى مبانى معاهد العلم وأثاثها فقاعة المحاضرة الكبرى التى يجتمع فيها الطلبة جميعهم يوميا لسماع محاضرة قصيرة أو قطع موسيقية أو لمشاهدة قطع تمثيلية أو صور متحركة . والملاعب بجميع أدواتها ومعداتها . وحماماتها وبحيرات السباحة ومصانعها لتعليم النجارة والحدادة والطباعة وصناعة الجلود والخزف والزخرفة وغرف الفنون الجميلة والموسيقى والرقص وقاعات المائدة وغرف الاستراحة وحفلات السمر . والقضاء على المقاعد الثابتة واستبدالها بمقاعد متحركة توضع فى أشكال موائد مستديرة . كل هذه أصبحت من مظاهر الحياة الاجتماعية داخل المدرسة

خامسا — لقد أثرت المناهج الحديثة فى ادارة المدارس والاشراف عليها . فبعد أن كان النظام المدرسى يعد مثلا أعلى متى كان القابض على

زمامه يسير دفته بيد حديدية ، ويتخذ الاستبداد والقسوة والشدة مبدأ له ، ولا يشرك المعلم فى هذه الادارة الا نادراً ، أصبحت الحرية والتعاون والتكاتف بين الادارة والمعلم والطالب تسود الجو المدرسى ، وبعد أن كانت المناهج تصدر من السلطات العليا أصبح للمعلم نصيب يذكر فى وضعها

٥ — قيمة المواد الدراسية . أولا — لا يكفى أن تكون للمادة الدراسية قيمة أو أهمية حتى نبرر وجودها، لأنا نستطيع أن نتلمس الفائدة فى كل ما يمكن تدريسه تقريباً ، غير أن القيمة أو الفائدة ينبغى أن تكون نسبية ، أى يلزم تفضيل الأهم على المهم فاذا خيرنا مثلا بين ادخال علم التعدين أو العزف على الربابة فى جميع مدارسنا الثانوية إجبارياً لكل الطلبة ، فأنا نختار بلا شك المادة الثانية . واذا خيرنا بين اللاتينية والاغريقية أو الايطالية والالمانية فأننا حتما نفضل إحدى المواد الثانية على الاولى . واذا خيرنا بين مادة الحساب والادب العربى فى القرن الثالث للهجرة ، فأنا بلا شك نفضل الحساب ، رغم أهمية الأدب العربى لأن الحساب يفتح للطالب عشرة أبواب فى حين أن الادب قلما يفتح باباً واحدا

واذا خيرنا بين مادة الجبر وعلم الأغذية لفضلنا الثانى

ثانياً — وقد تكون المادة الواحدة أهم لطالب منها لآخر وأفضل لمديرية أو ولاية أو طائفة أو مملكة منها لأخرى . فاللغة الاسبانية غير معروفة فى مدارسنا فى حين أنها منتشرة فى مدارس كندا وولايات أميركا المتحدة ، نظراً للعلائق التجارية بين هاتين المملكتين وبين جمهوريات أميركا الجنوبية وغيرها من البلدان التى تنطق بالاسبانية

وعلى هذا المبدأ يكون درس البلهارسيا والانكلستوما مهماً جداً فى الدلتا ومديريات الوجه القبلى الى أول حدود أسيوط ، عديم النفع تقريباً الى ما هو جنوب تلك المنطقة . وعلى هذا المبدأ يكون درس الحبوب المثمرة لكل طالب مصرى ودرس الوقاية من العقارب فى مدينة جرجا أهم من التاريخ والجغرافيا والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والادب الانجليزى متجمعة . وذلك لأن حاجاتنا اليها تعادل حاجة قدماء اليونان للمنطق لأنه كان يتخذ آداة للجدل والمناقشة لمنافسة الزعماء ، وتعادل حاجة الرومان الى اللاتينية لانها كانت سلما يرتقى به الى الدراسة العالية

ثالثاً — يقول جون ديوى فى هذا الصدد أن مواد الدراسة التى تكون أشد اتصالا بالمجتمع وحاجاته ، والتى تكون اختياراتنا اكثر حاجة اليها . يلزم أن توضع فى المرتبة الأولى . مثال ذلك اللغة القومية الحساب . الجغرافيا . التاريخ . علم الصحة الخ . أما المواد التى تصلح لفئة خاصة . ونخبة من أبناء الأمة . فهذه يلزم وضعها فى المرتبة الثانية . مثال ذلك الكيمياء . الفلسفة . الجبر . الهندسة . الفلك الخ

وبتعبير فنى يلزم أن نقدر مواد الدراسة قيمة وأهمية على أساس « المقياس الاجتماعى »

رابعاً — وليست هذه الاقوال وأمثالها ببدعة جديدة فى فلسفة التربية . فقد كتب هربرت سبنسر مالا يخرج عن هذا المعنى منذ أكثر من ستين عاماً مضى . يقول ذلك الفيلسوف الانجليزي . كما أن الزينة سبقت اللباس فى تاريخ التمدين الانسانى فكذلك فى المعرفة والعلم ، يسعى الناس فى طلب الزينة والتزويق . قبل السعى فى طلب الفائدة ،

ومعظم ماننلقاه من العلوم فى مدارسنا للزينة اكثر منه للعلم فاللاتينية واليونانية والأدب وأسماء الملوك فى صحائف التاريخ وحروبهم وموتهم وزواجهم — كل ذلك ندرسه للزينة وخوف انتقاد الغيرلنا

ثم انتقل سبنسر بعد ذلك الى تقسيم المواد الدراسية بترتيب أهميتها . فوضع فى المرتبة الاولى منها المواد التى نحافظ بها على حياتنا تليها المواد التى تعيننا على تربية الذرية . ثم العلوم التى تحافظ على العلائق الاجتماعية والسياسية وأخيرا العلوم التى نستخدمها فى أوقات الفراغ لتربية الذوق السليم وأشباع الشعور والعاطفة . وتكلم سبنسر أيضا عن الأهمية أو القيمة فقال أن بعضها حقيقى وبعضها شبيه بالحقيق وبعضها تقليدى وأشار الى وجوب تعميم النوع الأول بين أبناء الأمة . ووجوب قصر النوع الثانى على أذكى أبناء الامة (وهذا يطابق تقسيم ديوى تقريبا) ثم قال عن النوع الثانى أنه لولاه لكانت مدنية العالم فى هذا العصر شبيهة بها فى زمن الاقطاع

ثم تكلم سبنسر عن دراسة الادب والشعر فقال إن هذا قد يؤدى بصاحبه الى صحة النطق ورقة القول ورشاقة الحديث وحلو العبارة وجزالة الكلام وجمال التعبير ، غير أنه لايمكن أن يقال انه من الاهمية مايوازي المبادىء الاساسية والالمام بعلم الصحة وتربية الذرية ، وتفهم الحياة القومية ورفع المستوي الاخلاقى والاقتصادى — وتتلخص هذه النقطة فى سؤال طالما وجهه هربرت سبنسر ، وخليق بنا أن نوجهه الى رجال التعليم اليوم وهو « أية المواد الدراسية لها حق الأولوية ؟ »

٦ — المعلم : اولا — مهمة المعلم أن يوقظ فى نفس التلميذ روح

البحث والرغبة وأن يعطف عليه ويشجعه ، ويفتح له ابواب المرافق البشرية بكل أنواعها ، أو كما قال بعضهم أن ينفخ روح الحياة الاجتماعية فى رفات بال .

ثانيا — ويجدر بنا هنا ألا ننسى مطلقاً أن وظيفة المعلم لا تتعدى فتح الابواب لا ولوجها ، فان الثانى يترك برمته للتلميذ . والمعلم اذاً مرشد ومعين لاغير وعلمه الغزير ، واختصاصه فى مادته ، وتعمقه فيها لاتجديه نفعا ، أذا لم تكن صفات العناية والعون والعطف والارشاد متوافرة فيه جد التوافر . ومعظم المرضى يستوى عندهم الطبيب الحاذق والدجال المنافق طالما كانت الممرضة شديدة العناية ، كثيرة العطف ، باشة الوجه ، خفيفة الحركة ، غزيرة المعرفة ، ومن قبيل الكماليات وسيمة الطلعة ، عذبة الصوت .

ثالثا — مهمة المعلم ان يحول اعمال التلميذ الى غايات وأهداف وأن تكون هذه مشوقة مرغوباً فيها ، محببة اليه . مثال ذلك : —

صنع صندوق من الخشب وتغطيته بالورق من الداخل والخارج ثم استخراج المبادىء الرياضية من هذه العملية ، خير من مجرد استظهار هذه المبادىء مجردة عن حالة عملية مستخرجة من حياتنا اليومية .

رابعا — مهمة المعلم أن يترك تلميذه يلتمس الحقائق العملية حتى يعثر عليها بنفسه ولاينبغى له أن يكون معتزاً برأيه أو حاكما مستبداً ، يملى على الطفل مبادئه واعتقاداته ، لأن الحقائق لاتثبت فى ذهن الطالب الا متى كسبها بعرق جبينه

خامسا — أن رغبة التلميذ العادي عن الدرس فى سن معلومة ، دليل

عدم نضوجه فى الغالب ، أو ان الدرس قدم له فى حالة لاتهضمها معدته وبهذه المناسبة نقول ان التربية عملية نتوصل بها الى تعديل الطبيعة الانسانية وصقلها صقلا يناسب الحياة . ومن أهم واجبات المعلم تفهم هذه الطبيعة .

سادسا — ليس التعليم علماً وحسب ولكنه فن أيضا . والفرق بين الاثنين أن العلم معرفة ، والفن المقدرة على تطبيق المعرفة . العلم مجرد مباديء نظرية ، والفن قوانين عملية . العلم يقودنا للمعرفة ، والفن يدعونا للعمل . ووظيفة المعلم أن يكون فناناً أكثر منه عالماً .

٧ — الاخلاق : الاخلاق مجموعة عادات وتقاليد ومثل عليا اتفق عليها المجموع فأصبحت فى الفرد لحماً من لحمه وعظما من عظمه فاذا أطرى المجموع الملائكة ، وطبل لبطلها وزمر أصبحت الملائكة فى نظر الافراد حميدة واذا هجاها وأغضى عنها أصبحت رذيلة .ومن هذا ينتج أن مقياس الاخلاق تختلف باختلاف الجماعات والزمان والمكان ، ويتغير تبعاً لها .

وما يجدر بنا معرفته أن المتفق عليه الآن ان درس مباديء الاخلاق درساً قائما بذاته لايفيد فى تكوين الاخلاق ، لانه لايوجد فى طبيعة الآراء والمبادىء التى نلقنها للتلميذ عن الأمانة والعفة والصدق والدقة والنشاط والشفقة وغيرها ما ينقلها نقلا ميكانيكيا اتوماتيكياً الى نفس الطالب فيصبح أميناً ، عفيفاً ، صادقاً ، دقيقاً ، نشيطاً ، شفيقاً .

ان الاخلاق لا ينبغى فصلها عن التعليم كما أن العلم لايفصل عن العمل . والاخلاق لايتعلمها الطالب فى قصة قائمة بذاتها بل يتلقاها فى كل عمل يأتيه ، سواء أكان ذلك فى قاعة الدرس ، أم فى ساحة اللعب أم فى النادي أم فى المكتبة

ولو اتسع المقام لقرأت لكم بعض فقرات من مؤلف ديوى «المبادىء الاخلاقية فى التربية» وحسبى ان اذكر ان تعاليمه قد حولت أنظار الاندية المخصصة للشبان والشابات الى توفير الفرص واعداد المعدات التى بها يتعاونون ويعملون ويجتمعون بدلا من محاولة تربيتهم أخلاقيا بمجرد تلقينهم المبادىء الاخلاقية والدينية. مثال ذلك جمعيات الشبان واماكن العبادة فى اميركا

فى حجرة الدرس يتعلم الطالب فيها الغش والخيانة والكذب والجبن أو الامانة والثقة وعزة النفس والابتكار. ومن العبث اننا نستطيع أن نعلم التلاميذ هذه تعليما مباشرا. فالمعلم الجبان قد يخرج طلبة جبناء، والمعلم الذى يتطلب غير المعقول من طلبته، لاينتظر منهم غير الخديعة والخيانة. وبعكس ذلك يغلب على طلبة المعلم سامى الاخلاق أن يكتسب منه طلبته الصراحة والعدل والثقة واحترام الغير وجودة العمل.

واذا نسينا كل مبادىء التربية يلزم ان نذكر هذا المبدأ وهو «التعلم بالعمل» ويشمل معنيين أولهما أن التعلم لايتم فعلا الا بالقيام بعمل أو الاشتراك مع الجماعة فى تأدية نوع من أنواع النشاط، وثانيهما ان تعلم الامانة وخدمة للغير وغيرها من مبادىء الاخلاق لاتتم فعلا بمجرد الكلام عنها ولكن بمزاولتها والتعود لها، كلما جاءت مناسبة فى المدرسة وخارجها.

فى فبراير سنة ١٩٣٢ أتيح لى ان اكون عضوا فى مؤتمر اقامة

مديرو التعليم وقد حضره فى مدينة واشنطون نحو عشرين الف من المشتغلين بالتربية ، وقد كان بين أهم جلساته جلسة خاصة بالتربية الخلقية ، وقد اتفق رجال هذه الجلسة على أمور عدة أهمها ما يأتي : —

١) أن اهم مبادىء الاخلاق متفق عليها وان أختلف الناس فى تأويلها .

٢) ليس من واجب المعلم أن يبت فى مسألة أخلاقية غير متفق عليها ، ولكن عليه اعانة الطلبة على طرحها على بساط البحث وذكر مالها وما عليها

٣) ان علاقة الفرد بالمجموع الانسانى من أهم المبادىء التي يلزم الاعتراف بها فى التربية الخلقية

٤) من العبث ومن الخطأ أن نفرق بين مواد دراسية تؤدى الى تربية خلقية ، وبين أخرى لاعلاقة لها بهذه التربية

٥) وينتج من هذا ان كل منهاج حسن وسيلة للتربية الخلقية

٦) وكل تربية بالمعنى الصحيح هى تربية خلقية

٨ — كلمة خاصة : قد يكون بين المبادىء التى ذكرنا ما يظهر لاول وهلة أنه غير عملى ، أو غير قابل للتصديق ، وذلك لاننا ألفنا مبادىء خاصة ، سرنا بموجبها سنوات وأجيال . وليس من الحكمة فى شىء أن نأخذ بجميعها قضايا مسلمة ، لا تقبل النقد ولا الجدل ، كما أنه ليس من الحكمة فى شىء أن نضرب بها عرض الحائط ، بغير أن نبنى حكمنا

على أساس الدرس والبحث والتجارب . فليس رجال الغرب الذين أفنوا أعمارهم فى تكوين المدنية الغربية ، والعقلية الاوربية ، التى أخرجت لنا أبطال الصناعة والاختراع والاكتشاف ـ ليس هؤلاء بالجهلاء السذج الذين يلقون القول جزافا ، فيدونون لنا مبادىء لاوجود لها الا فى عالم الخيال

فلننهض إذاً ، ولنقلب صفحات الكتب التى جمعت حكمة الفرنسيين والألمان والانجليز والاميركيين فى عصرنا الحاضر . ولنضع مبادءهم فى بوتقة التجارب عندنا

التربية الحرة

الحرية فى جميع أشكالها عبارة تستعذ بها الالسن وتطيب لها النفوس. والتربية الصحيحة عنوان النبل وأول خطوة يتقدم بها المرء فى طفولته نحو الأمل بسعادة المستقبل . فاذا ما تغلغلت الحرية فى مبادىء التربية وفلسفتها اجتمعت لدينا منهما قوة لا تعادلها فى الوجود قوة

يفرق بعضهم بين التربية الاحترافية والتربية الحرة ، فيقولون أن الاولي وسيلة تؤدى الى غاية وهذه الغاية هي اشغال وظيفة أو مزاولة مهنة . والثانية غاية فى ذاتها أن كما يقال عادة طلب العلم لذاته ، فالرأى فى هذه الفكرة القديمة أن التربية الحرة تتنافى مع التربية الاحترافية . بيد أن التفرقة فى العصر الحديث محال . لأن التربية الاحترافية قد تكون حرة . فقد ولت الايام التى كان فيها الرجل العالم يظل عاطلا والتى كانت فيها مزاولة المهنة تتنافر مع العلم والحكمة كما كان يعتقد أفلاطون

وقبل أن أدلى بآراء العلماء المتضاربة فى معنى التربية الحرة أقول أن هذه الآراء جميعها تؤدى حقيقة معنى واحدا وأن تناولها واضعوها فى صور شتى وسبكوها فى قوالب لفظية عدة . ولعل الخطأ البين الذى يقع فيه الوالدون وأبناؤهم على السواء أنهم يفكرون فى العيش والملح كما نقول نحن ، أو فى العيش والزبدة كما يقول الغربيون ، قبل أن يفكروا

فى الرجولة وتكوينها والشخصية وتنميتها . وقد فات هؤلاء أن العيش والملح — أو كسب الرزق — انما هو ثمرة هذه الشخصية ، فاذا ما القينا بذورها على تربة خصبة أنبتت لنا كل ما نستطيب من عيش وكل ما نستملح من ملح

ومعهدنا «معهد التربية» قد شيد على أساس هذا المبدأ وهو تكوين الشخصية بواسطة التربية الحرة ، وإن اختلفت التعبيرات التى أدلى بها فى خطب السنوات السابقة الرئيس وطسن والدكتور روبرت مكلانهن والعميد رسل جولت . نبعث بأبنائنا الى المدرسة أو الكلية وأول ما نتساءل عنه ، أى وظيفة يشغل وأى حرفة يحترف وكم من الجنيهات يتناول ، وهذا كله حسن . ولكن قلما نسأل أنفسنا — وماذا تكون شخصيته ، وهل فى مقدور تلك المدرسة أن تزوده بسلاح الرجولة وتخرجه الى ميدان الحياة جندياً مستبسلا يشق طريقه غير هياب ولا وجل

وما هي ثمار هذه الشخصية ؟

يجيب عن هذا السؤال ثلاثة من فحول الانجليز ، أحدهم شاعر وثانيهم فيلسوف أو مفكر وثالثهم عالم

يقول الشاعر أن ثمار الرجل المتعلم تعليما حرا عقلية مصقولة ، وذوق سليم ، وصراحة وعقيدة لا تؤثر فيهما الاهواء ، ثم ايمان راسخ

يقول الفليسوف قد يكون الرجل ملماً بالتاريخ والطبيعيات والكيمياء ولكن ينقصه من التربية شيء آخر غامض تصعب تسميته قد يكون هذا الشيء شعراً أو موسيقى أو فناً من الفنون الجميلة ، أو مركبا كيمائياً مجهولا يمتزج به لحماً ودماً ونفساً ، أو شيئاً آخر لا أدركه أنا ولا يدركه في الوجود سواى

يقول أحد علماء الانجليز ان التربية الحرة تجعل جسم صاحبها خادماً لارادته وهي التي تسير المرء في طريق الحياة بخفة وسهولة طبق حقائق أساسية علمية . والرجل المتعلم تعليما حراً هو ذاك الذى لا يمكن أن يقال عنه أنه زاهد أو ناسك أو متصوف ولكن حياته تفيض رقة ولطفاً ونشاطا . هو ذلك الذى يحب الجمال في الطبيعة والفن على السواء هو ذلك الذى يحتقر الخسة ويحترم الغير كنفسه

وقد جاء في الحديث الشريف « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل »

اذا يريد العالم أن يكون المتعلم ملتهباً غيرة ولكنه قدير فى ضبط النفس ، اختصاصياً في عمله ولكنه ولوع بالجمال فى جميع أطواره ، قاسياً ورحيما ولكنه يحترم الغير كنفسه

واذا قارنا بين هذا التعريف وما نشاهده من ثمار التربية فى كثير من جامعات العالم رأينا بونا شاسعا ، فكم نجد بين جدرانها من عجرفة

وكبرياء ، وصلف وعدم اعتداد بالغير ، وأرستقراطية كاذبة تطل من سماء قصورها الخيالية على أكواخ ديمقراطية محتقرة . كم رأينا من ثمار تلك الجامعات من رجل يجلس الى مائدة ويولي وجهه شطر الحائط وظهره شطر بقية البشر يطالع كتابا وهو لا يدري فى الحياة غير سطور الكتاب ، ولا يعرف شيئا عن الطبائع البشرية ، ولا يحترم غير آرائه ولا يعيش الا لنفسه . قد يكون ذلك الرجل عالماً — بالمعنى العامي — ولكنه ضيق العقل محدود التفكير . قد يكون اختصاصياً فى عمله ولكنه لا يفقه للجمال معنى ولا يحسب للغير حسابا . هذا الرجل لم يترب تربية حرة ، وان يكن عالماً فتجنبوه

* * *

كان أرسطو فى العالم الاغريقى زعيم التربية الحرة وأول من ضرب على أوتارها نغمات تأخذ بمجامع القلوب . كان أرسطو يقول ان كل وطنى حر يجب أن يتربى تربية حرة ، لا كميزة للاستعلاء والزهو بل كواجب ومسئولية وعلم يحمله خدمة للوطن . ويجب أن تشمل هذه التربية حرية الجسم وحرية العقل وحصافته وحب الجمال واستعمال أوقات الفراغ

وقد تغيرت وجهة النظر فى التربية الحرة فى القرون الوسطى فكان يقصد بها الالمام بالفنون السبعة وهى (١) النحو (٢) فقه اللغة (٣) البيان (٤) الموسيقى (٥) الحساب (٦) الهندسة (٧) الفلك

ولعل معاهد العلم فى جميع انحاء العالم متأثرة بوجهة النظر فى القرون الوسطى لاننا ما زلنا نفرق بين أرستقراطية متعلمة تتقن عدة مواد دراسية ، وفوضى جاهلة، كما كانت تفرق فى القرون الوسطى بين الكاتب والجندى وكما كان يفرق أرسطو بين الحر والعبد

وقد ظهر فى القرن الخامس عشر فى ايطاليا «البشريون» فنادوا بوجوب تعليم ابن الدوق جنبا الى جنب مع ابن الصعلوك ، وجاء لوثير فى عصر الاصلاح فزاد هذه الوجهة وضوحا

التربية الحرة تمكن صاحبها من تكييف نفسه تكييفا يناسب مقتضيات الاحوال فاذا هبط صاحبها من سماء الجاه والثروة الي هوة الفاقة نزل الى ذلك المستوى وعاش ـ مع ذلك ـ فيه سعيدا . واذا صعد من هوة الفقر الى قمة المجد لا ينغمس فى مراتع القصف واللهو بل يعيش عيشة معتدلة لائقة بالرجل الشريف غير المحدث

ويقول لوك : ليست مهمة التربية الحرة الوقوف على المعلومات والالمام بالمعارف ولكن اطلاق العنان للفكر والمقدرة على الحصول على ما يريد من العلم والمعرفة من أى طور أطوار الحياة

ولكن . . . كم من حائزى الشهادات والدرجات العلمية ينطبق عليهم هذا القول . نعم أن هؤلاء قد يستطيعون أن يسردوا لك حقائق ومعلومات استظهروها وحفظوها عن ظهر قلب ، ولكن ضع هؤلاء فى مكتبة جامعة منظمة فهارسها وقل لهم ابحثوا لنا عن أول من زرع

النخيل والمؤلفات التى كتبت عنه أو عن مرض الانكلستوما أسبابه وأعراضه وطرق الوقاية منه ، أو كيفية تزيين الغرف المنزلية وفرشها بالاثاث بأحدث الطرق الصحية والفنية أو غير ذلك وأنا أراهنكم اذا كانوا يستطيعون اخراج هذه المعلومات من مصنفاتها .وما السبب ؟ لاننا نعلق أهمية علي تعليم الطلبة كبائر المعارف وصغائرها حتى يجوزوا الامتحان ولا نعلمهم كيف يبحثون عنها فيما اذا احتاجوا اليها أو الي غيرها من العلوم التى لا يدرسونها

يقول رسكن ان التربية الحرة لاتنحصر فى تعليم الحساب والادب وترك المتعلمين يمهرون فى تحويل أرقام الحساب الى لصوصية ، وعيون الشعر والادب الى عبث ومجون وخلاعة ، بل تهذيب أجسامهم ونفوسهم والمقدرة على التنقيب عن المعلومات عند الحاجة اليها

قيل للمهلب . بم أدركت ماأدركت . قال بالعلم . قيل له ، ان غيرك علم أكثر مما علمت ولم يدرك ماأدركت . قال ، ذلك علم حمل وهذا علم استعمل

مثل التربية الحرة مثل شاب اشترى سيارة لاول مرة ليقودها هو بيده ويطبق عليها ما تعلمه من مبادىء الطبيعيات والميكانيكا . فيقطع بها أميالا وأميالا ومراحل تليها مراحل . يتبوأ مجلسه فيها ، فاذا هو اكثر ارتفاعاً من جميع المارة ويشرف عليهم كانه فى كوكب علوى وهم مخلوقات صغيرة تزحف علي الارض فى بطء وضآله ، وكلما توغل فى السير وأعمل

قدمه فى محرك السرعة فتحت له الدنيا أبوابها ووسعت أمامه رحابها وشقت له أرضها الى السماء سبيلا ، وتفتحت امامه دائرة الأفق واسعة . وقد يدفع ذلك الشاب الجريء ثمن سيارته أقساطاً موزعة على شهور كما يدفع الطالب مصروفات الجامعة اقساطاً مجزأة مراعاة للضائقة المالية . هذه ميزة تسجلها لاصحاب السيارات ولو اننا نحن الذين لانملك سيارات نقول الآن همساً ليت فورد لم يولد وليت نجمه لم يتألق وليت موريس يوسع الى الموت الخطى . ثكلتك امك يا اوستن فقد فاقت سياراتكم ذرات الاثير فسدت فى وجوهنا الطرقات وأغلقت مسالكها

كذلك يقول أعداء التربية الحرة الذين لم يتذوقوا طعمها الا مشبعاً بتوابل الرق الجغرافى التاريخى والاسر الجبرى الهندسى ، والاستعباد الادبى النثرى الشعرى البيولوجى الطبيعى الكيمائي الفسيولوجى،والثقافة العاطلة التى تزيد النفس كبرياء وازدراء بالغير و بعدا عنهم

ليست التربية الحرة كالتربية الالمانية القديمة التى كانت تسبك جميع طلبتها سبكا بغض النظر عن نزعاتهم واستعداداتهم ، فى قوالب حديدية واحدة حتى يلموا بكل علم وفن كانهم دوائر معارف متحركة . وهذا يذكرنى بعبارة قالها فى هذه القاعة أحد كبار الاساتذة منذ اسبوعين وهو ان الناس يلبسون من الاحذية ما يناسب أقدامهم ولكنهم لايفصلون المواد الدراسية طبقا لقياس عقول طلبتهم

لاننادى هنا بتعليم ابنائنا تعليما سطحياً لأن المعارف السطحية

لاتقل خطراً عن الارهاق بل لابد للمتعلم من التعمق ، لان العقل انما يبحث عن الحقيقة فى العمق لا فى السطح ، كما أن الغاطس يغوص فى قاع البحر فى طلب اللآلىء واللآلىء لاتعيش الا فى جوف البحار وكما أن صغار السمك تطفو على وجه الماء

وهنا نتساءل أية ثقافة حرة تحتاج مدارسنا ؟

كان أرسطو يحب العلوم الطبيعية من جهة ويفكر فى ماوراء المادة من جهة أخري . وكان أفلاطون يعتقد أن الثقافة الحرة. تعنى بالاخلاق اكثر من أى شىء آخر . وكان ارستقراطياً يكره أن يعمل بيده وكان بيكون يحب الحقائق والمعارف ويقول ان المعارف قوة . وكان العرب مولعين فى ابان مجدهم بالعلوم الطبيعية وان كانت مشوهة بضرب من الخرافات . وكان كبلر وجاليليو أول من فكروا فى جعل الطريقة العملية والتفكير العلمى أساسا للثقافة الحرة

اذا جارينا برتراند رسل فى خياله قلنا بيانا لوجهات النظر المختلفة فى التربية الحرة ان ارسطو لو بعث من الموت اليوم الى عالمنا الحاضر لتنقل بين جامعة اكسفورد وحديقة الحيوانات (لأنه كان مولعاً بالفلسفة وعلم الحيوان كليهما) وكانت اكسفورد اكثر اصغاء الى فلسفته منها الى آرائه فى علم الحيوان . ولو بعث افلاطون لاحتقر معامل الكيمياء والطبيعيات لانها تتطلب العمل باليد (كان ارستقراطياً محباً للفلسفة فقط) ورفض ركوب القطارات الكهربائية والبخارية رفضا باتا اللهم إلا إذا

الغينا منها الدرجتين الثانية والثالثة واقتصرت الدرجة الاولى عليه وعلى حاشيته دون سواه . وهـذا يحقق ما قلناه من أن بعض التربية تورث الـكبرياء واحتقار الغير . واذا بعث ارشميدس صاحب القانون الطبيعي المشهور فانه يذهب تواً الي طست الحمام ليعيد تجربته واذا به يرى من النافذة بتلسكوبه باخرة كبيرة تمخر عباب البحر فتدفعه نشوة الفرح الى القفز مرة أخرى من الحمام والهروع الي الشارع عاريا هائما على وجهه كالمجنون

ولو بعث نيتشه اليوم لتنقل بين السوفيث ومستشفى المجاذيب يبحث عن السوبرمان فلا يجده

ولو بعث ديجون الفيلسوف لقضى وقته فى البحث عن الرجل الحـكيم مستعيناً فى ذلك لا بمصباحه القديم بل بمصباح كهربائي قوة ١٠٠ الف شمعة، وليس بعينه المجردة بل بميكروسكوب ذى قوة مكبرة هائلة. أما الفيلسوف الانجليزى بيكون (وكان مولعاً بالمعرفة ويقول أنها قوة) فلو بعث من قبره لوظف في الحال محرراً فى الموسوعة البريطانية ولـكنه سرعان ما يفصل منها لخروجـه عن الموضوع . واذا بعث العرب حزنوا لأن العلماء الى يومنا هذا عجزوا عن استكشاف التبر وتحويل المعادن الدنيئة ذهباً والوقوف على أسرار أكسير الحياة ولـكنهم كجاليليو وكبلر (مؤسسى الطريقة العلمية فى التفكير) كانو يتطون ظهور المناطيد ويتنسمون الهواء على أجنحة الطائرات ويخترقون الفيافى والقفار على

متن القطارات . بعكس غيرهم من العلماء الذين اذا بعثوا اليوم رفضوا تصديق البخار وكذبوا الكهرباء وكسروا مصابيح الكهرباء واستبدلوها بالسرج والفتيل لان أرسطو لم يذكرها فى مؤلفاته . ولم نبحث عن الأموات ؟ ألا يوجد بين الاحياء اليوم من يصادم كل فكرة حديثة فى التعليم لانها لم تذكر فى مؤلفات هربرت وسيمون ودنلوب وغيرهم

ومع التغييرات التى حدثت في أساليب التربية في خلال الخمسين السنة الماضية فانا فى حاجة الى استعارة شيء من التربية الحرة فى عصر الدولة الاغريقية . تلك التربية التى كانت تعمل على تقوية الابدان وتهذيب النفوس وعبادة الجمال والطموح الي بلوغه . والصبر على المكاره وتحمل الآلام حتى الموت فى سبيل الوطن والواجب

كتب رئيس كلية انجليزية أخيراً يقول « أن الكثيرين من الناس يبغون من العلم سفسطة يضعونها فى أفواه الطلاب حتى اذا ما هبطوا بها الى ميادين الحياة هووا الى جهنم . أن هؤلاء يزودون ابناءنا بسلاح المعارف وسيوفها ورصاصها وبنادقها بغير أن يعلموهم كيف يقاتلون بهذه السيوف وكيف يحشون تلك البنادق بالرصاص وكيف يصوبونها . يلزم لمدرسة أن تعلم الطالب كيف يكون ماهراً فى فنون الحياة وضروب العمل »

تخرج من كلية الآداب فى جامعتنا المصرية بضعة طلاب العام الفائت يحملون اجازاتها النهائية . وتخرج أيضامن كلية الاداب فى هذا

المعهد بضعة طلاب آخرين يحملون اجازاتها النهائية . فشكا هؤلاء وشكا اولئك أن الوظائف الحكومية لا ترحب بهم ولا تفتح لهم أبوابها. فهل فكر هؤلاء قبل التحاقهم بهاتين الكليتين أنهم انما التحقوا بها لانهم يريدون تربية حرة ؟ ومن الجهة الاخرى هل فكرت الحكومة والمصالح الحرة ، أن التربية كفيلة بنجاح صاحبها فيما اذا أسندت اليه فى مصالحهم وظائفها ؟

روت الجرائد العربية أخيراً عبارة عن وزير بريطانى سابق (السر اوكلنجدس) هذا ملخصها . اننى اعلم ابنائى الأربعة أن يشقوا طريقهم فى الحياة . لقد أتم ابنى الأكبر دروسه فى جامعة كمبردج ولكنه اشتغل بمعمل لتكرير الزيت ، وابنى الثانى يشتغل فى منجم فحم . ومع أنهما يربحان قليلا ولكنهما سعيدان فى عملهما . وكان فى طاقتى أن استعمل نفوذى فى تعيينهما فى منصب قليل العمل والمشقة وافر المكسب ولكنى آثرت أن يعين أحدهما فى مصنع والثانى فى منجم حتى يبدأا حياتيهما من أسفل السلم » .

وقول الوزير يعيد الى الذاكرة خطابا اطلعت عليه أرسله أجنبى كبير كان يشغل منصباً سامياً فى حكومتنا المصرية منذ سنوات قليلة مضت وهو الآن يتقلد وظيفة فى بلاده — أرسله الى صديق فى القاهرة جاء فيه ما يأتى : — « أن ما أتقاضاه فى بلادي اليوم أقل من المرتب الذى كان يتقاضاه سكرتيرى الخاص أثناء فى اشتغالى فى الحكومة المصرية وما يتقاضاه سكرتيري الخاص فى حكومة بلادى أقل مما كان يتقاضاه

ساعى مكتبي فى الحكومة المصرية » ثم ختم هذه الصراحة الجميله بقوله « ومع ذلك فانني اشعر فى مركزي الجديد بسعادة لا تفوقها سعادة وغبطة لا تفوقها غبطة فى سبيل الواجب وخدمة الاوطان »

يرمى الكثيرون بعض البلدان الغربية بأن الناس هناك يحولون تيار مدنيتهم نحو المادية . غير أنا فى هذه البلاد ماديون قبل كل شيء لأننا لا نقبل على التعليم الا اذا كان من ورائه وظيفة . أعرف رجلا ثريا كان يبحث عن مدرسة يلتحق بها نجلاه بشرط أن يتقلدا وظيفة حالا بعد نيلهما شهادتها بغير أن يكلفا نفسيهما حتى مؤونة البحث عن وظيفة . وفكر وفكر وأخيراً اهتدى الى ضالته المنشودة وهى مدرسة البوليس لأن الطالب يخرج منها مباشرة لنقطة البوليس ليكتب فيها محضر مخالفة لاحد المدمنين على الكوكايين

اذا أنشئت مدرسة للموظفين للالتحاق بها فى أوقات الفراغ انهالت على أصحابها الأسئلة : وهل يترتب على نيل شهادتها الانتقال من حرف ب الى ا ؟ واذا أنشيء معهد حر لا يقصد به الا تهيئة الشاب الى خوض معركة الحياة قيل لنا : وهل شهادته معترف بها من الحكومة ؟ واذا أنشئت مدرسة لتزويد المعلمين بالمعلومات أوقات الفراغ بادرنا بهذه الأسئلة : وهل تدفع الوزارة لحملة شهادتها اعانات للمدارس الحرة عنهم وهل يترتب عليها ترقية مالية ، وهل ينتقل المعلم منها من قائمة المعلمين الى سلك النظار والمفتشين

واذا أنشئت مدرسة تجارية متوسطة فى الارياف كانت الأسئلة .

وهـل المنتهون منها لدرجة الثامنـة أم السابعة ؟

متناقضات وغرائب . نقول أننا شرقيون والشرق مهبط الوحى والخيال والشعر ، ومع ذلك فاننا أكثر مادية من الماديين

كتب عالم شرقى صينى ينفى وجود المادية فى الغرب والروحانية فى الشرق وقال : أن آنية جميلة من الخزف لا تزيد مادية عن أرجوزة من الشعر فى الحب، وان كاثدرائية سنت بول لا تقل مادية عن بناية شاهقة من ناطحات السحاب التجارية فى أميركا

أين الماديه في الغرب ؟ أفى اختراع السـيارات والمحاريث ، تلك الرسل رسل الرحمة التى خففت من متاعب الانسـان والحيوان ، أفي تقدم الطب ومكافحه الامراض والحميات . وأين الروحانيه فى الشرق أفى الآلام التى يتكبدها الانسان فى البلدان المتأخرة من حمل الاحجار الثقيلة وجر العربات وفتك الاوبئه وكل ما يحرمه لذة الحياة والاستمتاع

يخيل الينا أن تعريف التربيه الحرة على رأى قصصى انجليزى هى تلك التى تجعل صاحبها يشكو بغير انقطاع من أنه مهضوم الحق فى مرتبه

أتوجد الروحانيه في الشرق في تلك القصيدة الشعرية التى تـكتب في مدح زيد وعبيد توصلا لبغيه فى النفس

كلا أيها السادة . أن التربيه الحرة تبدأ فى تـكوين الرجولة بالمنزل ولا تنتهى بانتهاء المدرسه . وقد قيل اذا أردت أن تربى طفلا تربيه

كاملة فابدأ بتربيه جدته ـ وعلى ذلك يكون معظمنا أميين . وقيل أيضاً أن التربية تبدأ قبل تكوين الجنين وتنتهى بالنزول الى حفرة الموت وعلى هذا الحساب نكون جميعنا أميين

لنبدأ اذن أن نربي أبناءنا وبناتنا تربية حرة حتى نري على الاقل احفادنا متعلمين وحتى يخرج منا اديسون وفورد ومار كونى وداروين وباستير ومدام كورى وايمى جونسون ـ هؤلاء جميعهم أيها السادة لم يتقلدوا مناصب عالية ولم ينالوا شهادات ولا دبلومات ولا درجات علمية ولكنهم تذوقوا طعم التربية الحرة وأكلوا منها مريئا وشربوا هنيئا

لنجرد حياتنا من مادية تكاد تقضى على البقية الباقية من تراث الاباء والاجداد . لنخلق من أبنائنا رجالا يرعون الذمم ويديرون دفة الاعمال حسبما تقتضيه المصلحة العامة . لنخلق من بناتنا زوجات صالحات وأمهات عاملات ، لنرفع من مستوانا الخلقى والاجتماعى نبراساً نبدد به غياهب الجهل والاستبداد ، لنمعن فى البحث والتنقيب عن وريقات البردى الشرقية في اطلال طيبة علنا نجد فى لفائفها ذلك القبس الذى استمد منه الغرب حكمة الشرق ، لننحن باجلال على زهرات اللوتس نرتشف من كؤوسها ذلك الشراب العجيب الذي سقى تلك العقول الراجحة صهباء العبقرية والنبوغ . لنطو صفحة الماضى غير مأسوف عليها اذا لم نجد فيها العلاج الشافي ، ونقلب صفحات الحاضر فى كتاب المدنية الغربية علنا نتخذ من طلاسمها أكسيراً يحيي الرمم البالية ، لنتخذ من الضعف قوة ومن الرق والاستعباد حرية

التفكير العلمى الحر

كان للناس فى العصور الغابرة بعض العذر ، لأنهم كانوا لا يفكرون تفكيراً علمياً حراً وذلك لأن معظم البلدان كانت تغلب على أهلها الزراعة والزراعة المجردة من الصناعة ، تدعو الى التفكير المغلق المحدود . فهذه انجلترا ، عند ما غزاها ملوك النورمان من فرنسا فى القرن العاشر للميلاد وجدوها متأخرة فى تفكيرها ، محافظة رجعية ، وما كادوا يدخلون فيها الصناعات مع ما تيسر من الفنون الجميلة والمعمار والعلم ، حتى دب فى أهلها دبيب الحياة الفكرية . والامم الصناعية يميل أهلها الي التفكير الحر لأنهم يلمسون العلم فى الآلات الصناعية بأيديهم ، ويحسون به فى ما يتنعمون به من كساء وغطاء وأثاث وأدوات منزلية ، ويتذوقونه طعاماً فى مواد الاكل المثلوجة التى تجلب اليهم من أشاسع الاقطار ويبصرونه بعيونهم فى قطر وسيارات تنهب الارض نهباً ، وسفن تجارية تمخر عباب المحيطات والبحار ، وطائرات تقطع الفيافى والقفار ، ويسمعونه بآذانهم فى الفونوغراف والتليفون اللاسلكى . ونحن الآن نعيش فى مثل هذا العصر ولا عذر لنا اذا لم نفكر تفكيراً علمياً صحيحاً ، خصوصاً أولئك الذين أتيح لهم قسط يذكر من التربية الصحيحة

والتفكير العلمى وحده لا يكفى ، ما لم يخفق على صرحه لواء الحرية

تبعث الحكومة سنوياً عدداً لا يستهان به من خريجى المدارس العالية الى أوربا . ولا بد أن الكثيرين منهم يعودون وهم على علم بأساليب التفكير العلمى ، ولكنهم للأسف يضعون كلمات على أفواههم ، ويعقدون السنتهم داخل حلوقهم فاذا جرت أقلامهم جف مدادها قبل أن تخط حرفا جريئا واذا ما انطلقت السنتهم قيدوها بالاغلال قبل أن تنطق بحرف واحد فى أدوائنا الاجتماعية . تعالوا معى نستشهد بالتاريخ الحديث ، والتاريخ أصدق حكم

أي مصرى غير قاسم بك أمين واصل تفكيره العلمى الحر ، اصلاحا لعيب اجتماعي فينا ، رغم ما كيل له من النقد والايلام والتجريح . أى مصرى غير مصطفى كامل وسعد زغلول والقلائل من قادة الرأى فى السياسة ، ضحى بمصالحه الخاصة فى سبيل التفكير الجرىء الحر ؟

أى مصرى غير رجال بنك مصر من رجال الزراعة والاعمال الهامة الاقتصادية ممن فى أيديهم الحل والربط ، قام ينادي بمشروعات عامة ، تنهض بالبلاد من أزماتها الاقتصادية ، وتنقذ الفلاح مما يعانيه من الآلام وما يتخلل حياته من صنوف البؤس وانحطاط مستوي العيش ، وتفتح أبواباً مغلقة فى وجوه عشرات الألوف من الشبان المتعلمين ؟

ليس ثمة منقذ لنا من هذا الجمود الفكرى العلمى الحر إلا معاهد العلم ولكن معاهد العلم كما هى اليوم لا يمكن بتاتاً أن تبعث فى شبابنا روح التفكير العلمى ، ولا يمكن لها أبداً أن يخرج منها تفكير حر . وطالما بقيت الحال على ماهي عليه اليوم فقل على التفكير العلمى السلام . وقل على التفكير الحر السلامين .

فهذه مدارسنا العليا . أين التحقيق العلمى فيها؟ الا نجد فيها ؟ النجاح فى الامتحانات مقروناً بالاستظهار والحفظ وتكديس المواد فى الذهن خصوصاً فى الأسبوع الاخير ؟ الا نجد النجاح فى الامتحان مقروناً بالاتفاق مع الاستاذ فى الرأى سلفاً ، وقراءة مذاكراته والكتب التى يلم بها حرفاً حرفا ، والويل لمن يطلع علي مراجع أخرى ؟ ألا نجد النظام فى المدارس العليا هو عينه نظام المدارس الابتدائية ،من خروج ودخول وحضور وغياب وتسميع وتأديب وتأدية امتحان بطرق قديمة عقيمة ؟ ألا نجد الطالب مقيداً لا يجد مايشجعه على مناقشة الاستاذ أو مخالفته فى الرأى ؟

فهذه مدرسة التجارة العليا ،لاتقل ساعات الدروس المقررة فيها عما هي فى المدارس الثانوية التى تشكو من نظامها مر الشكوي . ولا يختلف النظام فيها عما هو فى المدارس الابتدائية الثانوية يجلس الطالب فيها خمس ساعات متوالية يسمع لمحاضرات أساتذته، ويدون ما استطاع تدوينه من المذكرات ، ثم يخرج منهوك القوى ،مشبعا بالمواد ، وكل مايستطيع عمله خارج المدرسة هو أن يلقى نظرات على ما التقطه كالببغاء من أفواه الاستاذة . وأن يراجع فصلا من الكتاب المقرر — الكتاب المقرر دون سواه — لأن الزمن والنظام والتقاليد ، كلها لا تسمح له أن يتصفح كتابا آخر ، أو يقرأ جهة نظر أخرى . أو بعد هذا تطالب هذا الجمهور المدرسى بالتفكير ؟ أبعد هذا ننتظر تخريج رجال مفكرين ، قادرين على إدارة الاعمال بأنفسهم ، والتفكير فى تأسيس المشروعات واستثمار الاموال ، إذا ما وجدت ؟ أبعد هذا تقول لهم اعتمدوا على

أنفسكم لا على الحكومة وغير ذلك من النظريات ؟ وهل يمكن أن يهبط عليهم التفكير من السماء ، وينزل عليهم وحي الاعتماد على الذات من طبقات الاثير ؟ .

وكيف نرجو أن يفكر أبناؤنا تفكيراً علمياحراً والبكالوريا وأخواتها عقبة كؤود فى سبيل العلم والحرية ؟ وهل يمكن الطالب أن يتعود التفكير وهو من الصباح للمساء كالجندى يلتقى أوامر حربية لا تقبل أخذاً أو رداً ، وهو يحشو ذهنه بالمواد المتنافرة ، المتعددة ، غير المتجانسة ، فقط توصلا للبكالوريا ؟ .

وكيف تسرى فى عروق بنينا دماء الحرية ، ونحن نحشرهم صغاراً فى جو المدارس الابتدائية ، المشبع بالاستبداد والارهاق وعدم الحركة ، فيجلس الطفل على مقعد مثبت فى الارض ، ويخاطب المعلم صبية مثبتين فى مقاعدهم ، منجدين فوقها تنجيداً ؟ .

نترك معاهدنا تسير على هذا النظام ، وندع القوانين الصامته تفكر للمعلمين ، والمعلمون يتسامون هذا التفكير الصامت المستعمل ويضعونه فى أفواه تلاميذهم ، وهؤلاء يخزنونه خزنا حتى يوم الامتحان فيلقونه على القرطاس على عجل قبل أن تسطو عليه أيدى النسيان .

نترك الطلبة يشاهدون عملية التفكير تجرى أمامهم فى جو لا تنعشه نسمات الحرية والتفكير ، ونظن أنه بذلك يتعود التفكير

ولكن — كم إنسان فى الوجود شاهد التفاحة تسقط من الشجرة فتكشف قانون الجاذبية كاسحق نيوتن ؟

وكم إنسان فى الوجود شاهد غطاء الاناء يعلو وينخفض قليلا فوق

الماء من درجة الغليان فاخترع أول آلة بخارية كجيمس واط ؟

وكم إنسان فى الوجود شاهد الشرر الكهربائى يقدح بين سلكين ، أحدهما موجب والاخر سالب فاخترع المصباح الكربائى كأديسون

وكم إنسان فى الوجود سمع أصداء الصوت تحملها أمواج الاثير فاخترع اللاسلكى كمركوني ؟

قد يكون التفكير العلمى هبط على هؤلاء من السماء وقد يكون هناك من تدفع به العبقرية الى الامام ، فيخترع ، ويبتكر ، ويستكشف أينما وجد ، وكيفما كان نظام المعهد الذى يدرس فيه .ولكن ماذا نفعل بجيش جرار من الشبان ذوى المواهب المتوسطة والعقول المعتادة ؟ ألا يمكن أن نهيء لهم الجو المدرسى الذى فيه يكون الفكر حراً طليقاً ، فيستطيعون أن يشقوا لأنفسهم طرق العيش ، إذا لم يقدموا على الاختراع والابتكار والاستكشاف ؟ ألا يمكن أن ندع لهؤلاء سبيلا للبحث والتفكير واستقصاء المسائل واستخلاص الآراء من مصادرها ؟

ليس الاستظهار والحفظ ونيل الشهادات والمشاهدة وحدها تكفى للتفكير العلمى الحر . لنبحث عن الحقيقة أينما وجدت ، علينا كانت أم لنا قبل أن نصدر على الأشياء أحكاما. لنتذرع بالتسامح وعدم التحيز توصلا إلى جعل التفكير علمياً ، لنتجنب التحايل على الأدلة تحايلا لأننا بذلك نخدع أنفسنا قبل الغير .

لنجرب الاشياء بأنفسنا ، أو نعتمد على تجارب من يوثق بهم ويعتمد عليهم من الاخصائيين فى أعمالهم

وأخيراً لنفكر فى عالم الحرية الواسع ، متخذين الجرأة فى الحق سلاحا لنا والشجاعة فيما نقول ونكتب ، رائدنا . ولنفكر دائما فى المصلحة العامة قبل الخاصة .

فهرست الكتاب

صفحه	
٣	القراءة الصامتة
١٦	اختبار الذكاء
٣٣	العاطفة الجنسية
٤٦	صناعة الكلام
٤٩	ما العيب فى مدارسنا
٦٠	مسائل الطفولة
٦٦	القلق التعليمي
٧٨	أهم مبادىء التربية
٩٣	التربية الحرة
١٠٧	التفكير العامى الحر

C - LIBRARY

DATE DUE

LA
1646
B52x

APR 1982
6 MAY 1987

10000114337